بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

[الشورى: ١٥]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بـهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيشتمل هذا الكتاب على المحاضرات الثلاث التالية:

١ - العدل والإنصاف.

٢ - الإرهاب داخل الصف الإسلامي.

٣ - أزمة أخلاق.

وكنت قد ألقيت هذه المحاضرات في نوادٍ إسلامية مختلفة بأوربا، وأعـدت صياغتها بعد أن أَفَدْتُ من أسئلة ومـلحوظات الذين شهدوا هـذه المحاضـرات، ثم نشرتـها على شكل حلقات في مجلة الـسنة، وأسميـت هـذا الكتـاب: "أزمـة أخلاق"، وذلك لأن كل من التزم بالأخلاق الإسلامية الرفيعـة، وتـأدب بـأدب النبوة لابد وأن يتجنب الإرهاب بكافـة صـوره وأشـكاله، كمـا أنـه لابـد وأن يكون عادلاً منصفاً في أحكامه وأقواله وأفعاله، وكل من انحطت أخلاقـه فغـير مستغـرب منـه ظلمـــه لإخوانـه وأعدائـــه، وفـسـاده في الأرض، ومـشيه بـين

الناس بالنميمة.

حاولت في هذا الكتاب إبراز أهم مشكلات الدعاة والجماعات الإسلامية، ووضع الحلول المناسبة لها، فعندما نتحدث عن الحوار الهادئ البناء سبيلاً وحيداً إلى وحدة الصف، ورأب الصدع، وإصلاح ذات البين، تنصرف جهود كثير من الباحثين إلى القضايا الشكلية في الحوار مثل: حسن الاستماع، وترك المتحدث يقول كل ما يريد دون مقاطعة، والحرص على تقرير النقاط التي يسهل الاتفاق عليها لتكون أرضية مشتركة بين المتحاورين، وتأجيل القضايا الشائكة إلى الجلسات الأخيرة، وغير ذلك.

وأنا لا أقلل من أهمية القضايا الشكلية، ولكنني عرضت في كتابي هذا أموراً تسبقها في الأهمية، وعليها ينبني نجاح الحوار أو فشله، فالظالم المراوغ لن ينجح في حواره مهما ملك من دهاء وخبرة، لأن أفعاله القبيحة مكشوفة عند الذين يحاورونه، وهم يتوجسون خيفة من كل كلمة يقولها، ومن كل طلب يطلبه منهم، لأنهم يخشون أن يكون حواره خدعة يهدف من ورائها إلى الحصول على معلومات خاصة يستخدمها فيما بعد عند الحاجة إليها.

والداعية الذي يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر لابد وأن يكون قدوة صالحة، فإذا كانت أقواله مخالفة لأفعاله لن يتبعه أحد، وستكون دعوته مادة سيئة يستغلها أعداء الإسلام أبشع استغلال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

وإنه لا أمل للنهوض من هذا الواقع إلا إذا تغيرت نفوسنا، وصلحت أخلاقنا:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

أرجو أن يستفيد القراء من هـذا الكتـاب، وأن تحتـل الأخـلاق مكانتهـا المناسبة في مناهج الدعوة والدعاة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لندن: ١٥/ ٤/ ١٤٢٠ هجرية

محمد سرور زين العابدين

❊ ❊ ❊

الباب الأول

العدل والإنصاف

ويشمل الفصول التالية:

الفصل الأول: العدل في مدلوله الشرعي.

الفصل الثاني: درس لا ينسى.

الفصل الثالث: سؤال وجوابه.

الفصل الأول

العدل في مدلوله الشرعي

- العدل لغة
- شواهد من القرآن الكريم
- شواهد من السنة
- عدل الإسلام مع الكفار
- شواهد من التاريخ على عدل الإسلام مع الكفار
- عدل أئمة السلف
- عدل الدعاة فيما بينهم

العدل

العدل هو: القسط والإنصاف، والاستقامة وعدم الجَوْر، والقصد في الأمور، وما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو - العدل - أيضاً نقيض الهوى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء:١٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

"وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال النبي ﷺ: (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم)، فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة"[١].

وقال أيضاً:

"والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه ومحبته والثناء على أهله

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٨/١٤٦.

ومحبتهم، والظلم مما اتفقوا على بغضه وذمه وتقبيحه، وذم أهله وبغضهم"[١].

قال القاضي أبو بكر بن العربي: "العدل بين العبد وربه بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، وبين العبد وبين نفسه بمزيد الطاعات وتوقي الشبهات والشهوات، وبين العبد وبين غيره بالإنصاف"[٢].

وقال الراغب: "العدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو: أن تحسن لمن أحسن إليك، وتكف الأذى عمن كف أذاه عنك.

وعدل يعرف بالشرع، ويمكن أن يدخله النسخ، ويوصف بالاعتداء مقابلة كالقصاص وأرش الجنابات وأخذ مال المرتد، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وهذا النحو هو المعني بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ فإن العدل هو المساواة في المكافأة في خير أو شر، والإحسان مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بالترك أو بأقل منه"[٣].

شواهد من القرآن الكريم:

أمر الله بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

روى ابن جرير عن ابن مسعود: "إن أجمع آية في القرآن لخير وشر،

---

(١) منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام، تحقيق محمد رشاد سالم: ٥/ ١٢٧.

(٢) فتح الباري، كتاب الأدب/ باب قول الله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية.

(٣) المصدر السابق.

هذه الآية".

وقال سعيد عن قتادة في تفسيره لهذه الآية:

"ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يعايرونه بينهم إلا نـهى الله عنه وقـدَّم فيـه. وإنما نـهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها".

قلت [ابن كثير]:

ولهـذا جـاء في الحـديث: "إن الله يحـب معـالي الأخـلاق ويكـره سفسافها"(١).

ومن العدل الصدق والإنصاف في القول كله، قال تعالى:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقـال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ . .﴾ [النساء: ١٣٥].

ومن لطيف ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْـدِلُوا ﴾: "وهـذه اللفظة من الأمور العجيبة في عذوبة لفظها وقلة حروفها وجمعهـا لأمـور كـثيرة من الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر والفتـاوى والأحكام والمذاهب"(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، مطبعة الشعب، القاهرة.

(٢) تفسير القاسمي، ص: ٢٥٦٩، المجلد السادس، دار إحياء الكتب العربية.

ومن الأحاديث الواردة في هذا المعنى:

- عن عبادة بن الصامت، قال: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله.. إلى أن قال: وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم"(١).

وزاد النسائي: "وعلى أن نقول بالعدل أين كنا"(٢).

- وقال ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي.. إلى قوله: (وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب)، وفي رواية أخرى: (وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الإخلاص في الرضا والغضب)(٣).

ومن العدل: الوفاء بالعقود، وعدم بخس الناس حقوقهم، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤ – ٨٥].

وقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣]. وقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس.

(٢) صحيح سنن النسائي، كتاب البيعة، باب البيعة على القول بالعدل، رقم الحديث: ٣٨٧٢.

(٣) صحيح سنن النسائي، الجزء الأول، باب الدعاء بعد الذكر، رقم الحديث: ١٢٣٧، والحديث: ١٢٣٨، الناشر: مكتبة التربية العربي لدول الخليج.

ومن **العدل**: الحكم بما أنزل الله، قال تعالى:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: ٢٦].

وقال: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

تدل هذه الآيات – وغيرها كثير – على أن ما أنزل الله هو القسط، وكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالحق المبين، وكل من حكم بغير ما أنزل الله وجعله تشريعاً لا يجوز لأحد مخالفته فهو كافر ﴿فأولئك هم الكافرون﴾، وهو ظالم لأنه لم ينصف الظالم من المظلوم ﴿فأولئك هم الظالمون﴾، وهو فاسق لأنه خارج عن طاعة ربه، منقاد لشهواته وأهوائه ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾.

شواهد من السنة:

تجسدت معاني العدل كلها بشخصية رسول الله ﷺ، فلقد كان يعطي كل صاحب حق حقه لا يحابي في ذلك قريباً ولا عزيزاً، وكان ﷺ لا يقبل الشفاعة في حد من حدود الله.

– عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ [(١)] رسول الله ﷺ. فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ:

(١) حب: محبوبه ﷺ.

(أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟) ثم قام فاختطب ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد [ﷺ] سرقت لقطعت يد) [(١)].

من فقه الحديث:

١ – كان لقريش مكانة مرموقة بين العرب في جاهليتهم، وإقامة الحد على امرأة منهم لأنها سرقت منقصة لهم بين القبائل، ولهذا اختاروا أسامة بن زيد ليشفع للمرأة المخزومية عند رسول الله ﷺ.

٢ – غضب رسول الله ﷺ، وقال لأسامة: (أتشفع في حد من حدود الله)، وفي رواية: "فتلون وجه رسول الله ﷺ" أي: تغير غيظاً، ورسول الله ﷺ لا يغضب إلا لله جل وعلا، وكان من عادته ﷺ دعوة الناس إلى مسجده عندما يحدث حدث مهم ثم يقف خطيباً بينهم، ويبين لهم الحكم الشرعي في هذا الحدث.

٣ – كانت خطبة رسول الله ﷺ قصيرة، ولكنها تضمنت أحكاماً في غاية الأهمية:

منها: الاعتبار بأحوال من مضى من الأمم ولاسيما الذين خالفوا أمر الشرع، وكيف أهلكهم الله عندما أقاموا الحدود على الضعفاء وتركوا الشرفاء.

ومنها: أن المسلمين سواسية في الحدود وغيرها، قال شراح الحديث: كانت فاطمة عليها السلام عند أبيها ﷺ في أعظم المنازل، ولو أنها سرقت

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، وانظر رياض الصالحين للنووي، كتاب الأمور، باب تحريم الشفاعة في الحدود.

لقطع محمد ﷺ يدها، وفي هذا دليل على جواز ضرب المثل بالكبير القدر للمبالغة في الزجر عن الفعل ومراتب ذلك مختلفة.

٤ – وفي رواية: فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. قال ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها[١].

فهمت قريش بخاصة والصحابة بعامة هذا الدرس التربوي من نبيهم ﷺ، فالمرأة قطعت يدها، وقريش علمت أنها في الأحكام الشرعية كغيرها من القبائل، بل كغيرها من أرقاء المسلمين، وأسامة لن يشفع بعد الآن بحد من حدود الله، ويا ليت المربين من العلماء يعلمون طلابهم أهمية العدل والإنصاف، ويحذرونهم من الهوى والظلم والجور، ويكونون في أعمالهم وأقوالهم نماذج يحسن التأسي بها.

مما يجدر ذكره أن عدل الإسلام شمل الحيوانات، فلا يجوز ظلمها ولا منع الطعام والشراب عنها.

– عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

(عذبت امرأة في هرة: حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)[٢].

وفي أحاديث أخرى أشار ﷺ إلى أجر المقسطين عند الله تعالى:

– عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل، كان له أجر،

(١) انظر رياض الصالحين وفتح الباري.

(٢) متفق عليه.

وإن يأمر بغيره كان عليه منه)[١].

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[٢].

عدل الإسلام مع الكفار:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهي صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف في بغض مسلم بتأويل وشبهة أو بهوى نفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه"[٣].

وقال القرطبي: "﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ الآية، على ترك العدل وإيثار العدوان على الحق. وفي هذا دليل على نفوذ حكم العدو على عدوه في الله تعالى ونفوذ شهادته عليه: لأنه أمر بالعدل وإن أبغضه، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه مع البغض له لما كان لأمره بالعدل فيه وجه. ودلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه"[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة.

(٣) منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٥/١٢٧، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم.

(٤) تفسير القرطبي: ٥/١٠٩ دار الكتاب العربي.

شواهد من التاريخ على عدل الإسلام مع الكفار:

حقوق أهل الذمة – العامة والخاصة – مصانة محترمة لا يجوز المساس بها ما داموا ملتزمين بالعهود التي عاهدوا المسلمين عليها، ويستطيع المظلوم منهم رفع ظلامته للقاضي الذي لا يتردد في استدعاء الظالم ولو كان خليفة المسلمين أو نائباً من نوابه، ويقف الخصمان أمام القاضي على قدم المساواة، كل يدافع عن نفسه دون خوف ولا قهر واستبداد، وعندما يفرغ القاضي من إجراءات المحاكمة يصدر الحكم الذي ينصف الظالم من المظلوم، وإذا كان الخليفة هو المدان فما عليه إلا تنفيذ حكم القاضي. قال رسول الله ﷺ: (ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة)[1].

ومن ذا الذي يرضى بمحاجة رسول الله ﷺ يوم القيامة؟. وطالما حكم القضاة للنصارى واليهود، وأعادوا لهم حقهم المغتصب، ومن بين الشواهد الدالة على عدل المسلمين وإنصافهم للذميين نذكر ما يلي:

١ – كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى عدي بن أرطأة، – واليه على البصرة – يقول:

"أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام، واختار الكفر عنتاً وخسراناً مبيناً، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاشر المسلمين وقوة على عدوهم، ثم انظر من قِبَلَكَ من أهل الذمة، قد كبرت سنه وضعفت

(١) صحيح سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب تعشير أهل الذمة، إذا اختلفوا بالتجارات.

قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق. وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه"[١].

٢ – عزم الوليد بن عبد الملك على توسعة المكان الذي اتخذه أبو عبيدة مسجداً، (في دمشق) وذلك لأن المسجد القديم لم يعد يتسع للمسلمين الذين تضاعف عددهم مرات ومرات، ومن جهة أخرى فقد كان بعض المسلمين يتأذى بسماع قراءة النصارى للإنجيل، ورفع أصواتهم في صلواتهم في كنيستهم المجاورة للمسجد.

طلب الوليد النصارى، وعرض عليهم إقطاعات كثيرة مقابل التخلي عن هذه الكنيسة، فأبوا ذلك أشد الإباء، وجلس الخليفة أياماً يفكر في هذه القضية لأن مسألة إخراجهم بالقوة ليست واردة، وجاءه من يرشده إلى الحل الأمثل الذي يلزم الطرفين، فطلب الوليد النصارى وقال لهم: ائتوني بعهودكم التي بأيديكم من زمن الصحابة، فأتوا بها فقرئت بحضرة الوليد، فإذا كنيسة توما لم تدخل في العهد، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مر يحنا، فقال الوليد: أنا أهدمها وأجعلها مسجداً، فقالوا: بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس[٢] ونحن نرضى ونطيب له نفساً ببقية هذه الكنيسة، فأقرهم على تلك

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص: ١/ ٣٧، دار العلم للملايين.

(٢) من أهم هذه الكنائس التي لم تدخل في العهد: كنيسة مريم، وكنيسة المصلبة، وكنيسة تل الجبن، وكنيسة حميد بن درة.

الكنائس، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة[١].

٣ – يقول [أرنولد] وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين الطوائف المسيحية: "ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس مثال ذلك: أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكهم لها".

ويقول غوستاف لوبون: "إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم"[٢].

٤ – وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة لسراجون ملك قبرص نقدم فيما يلي مقطعاً منها:

"وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلوشاه، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون، قلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفكهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٩/ ١٤٢، ومن الجدير بالذكر أن ابن كثير أورد أكثر من رواية، لا تخرج عن عودة الطرفين إلى عهود النصارى مع الصحابة الذين فتحوا دمشق، واحتكامهم إلى هذه العهود.

(٢) من روائع حضارتنا، الدكتور مصطفى السباعي: ٨٦، ٨٨.

الله، فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله.

وكذلك السبي الذي بين أيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما أوصانا خاتم النبيين"[1].

❋ ❋ ❋

(١) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، للشيخ محمد بهجة البيطار، ص: ١٥[عن الرسالة القبرصية لابن تيمية].

عدل أئمة السلف

كان جمهور أئمة السلف - رحمهم الله - يُنْـزِلُون الناس منازلهم، فلا يظلمون أقرانهم بسبب اختلاف الاجتهادات، ولا يحابون أقرب الناس إليهم فيعطونهم مالا يستحقونه. ولقد كانت هذه حالهم مع المبتدعين، أو حتى مع الكفار امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا..﴾، ونعرض فيما يلي نماذج من عدلهم:

١ – عن عاصم بن كليب، عن أبيه قال: انتهينا إلى علي رضي الله عنه، فذكر عائشة، فقال: خليلة رسول الله ﷺ.

قال الذهبي: وهذا يقوله أميرُ المؤمنين في حق عائشة مع ما وقع بينهما، فرضي الله عنهما. ولا ريب أن عائشة نَدِمَتْ ندامةً كُلِّيَّةً على مسيرها إلى البصرة وحضورها يوم الجمل، وما ظنت أن الأمر يبلغ ما بلغ. فعن عمارة بن عمير، عمن سمع عائشة إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] بكت حتى تبل خمارها.

وعن عمرو بن غالب: أن رجلاً نال من عائشة عند عمار، فقال: أُغْرُبْ مقبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ[1].

٢ – وعن عبد الرحمن بن شُماسَة، قال: دخلت على عائشة، فقالت: مما

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، ٢/ ١٧٧.

أنت؟ قلت: من أهل مصر. قالت: كيف وجدتم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خيرُ أمير، ما يقف لرجل منا فرسٌ ولا بعيرٌ إلا أبدل مكانه بعيراً، ولا غلام إلا أبدل مكانه غلاماً. قالت: إنه لا يمنعني قَتْلُهُ أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ، إني سمعته يقول: (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه)[(١)]"[(٢)].

٣ – سئل أحمد بن حنبل عن الشافعي، فقال: "لقد منَّ الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم، وكتبنا كتبهم، حتى قدم علينا، فلما سمعنا كلامه، علمنا أنه أعلمُ من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي، فما رأينا منه إلا كل خير، فقيل له: كان يحيى وأبو عبيد لا يرضيانه – يشير إلى التشيع وأنهما نسباهُ إلى ذلك –، فقال أحمد بن حنبل: ما ندري ما يقولان، والله ما رأينا منه إلا خيراً".

وللخبر تتمة عند البيهقي، وهي: ثم قال لمن حوله: "اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم، وحُرِمَه قرناؤه وأشكاله، حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم".

قال الذهبي: من زعم أن الشافعي يتشيّع فهو مُفترٍ، لا يدري ما يقول[(٣)].

٤ – قال يونس الصَّدَفيُّ: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: ١٨٢٨، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل.

(٢) سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: ٣/ ٣٨، ومعاوية بن حديج له صحبة، وولي إمرة مصر لمعاوية وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر الصديق لأنه كان أحد الذين حاصروا عثمان بن عفان، وقيل: كان من بين الذين شاركوا في قتله [عن سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٧ و ٣/ ٤٨١].

(٣) سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ١٠/ ٥٨، والتتمة في هامش الخبر.

مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة.

قال الذهبي: هذا يدلُّ على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون[١].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/١٦.

عدل الدعاة فيما بينهم

أخي الداعية، ها قد رأيت أن عدل الإسلام قد اتسع للحيوانات، وأن الله جل وعلا قد أدخل امرأة النار بسبب ظلمها لهرة، وشمل عدل الإسلام أيضاً الذين كفروا من أهل الكتاب، وتوعد رسول الله ﷺ من يظلمهم:

(ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة).

أظن أنه قد آن لنا بعد هذه الرحلة في رحاب العدل أن نتساءل: أما آن للدعاة أن يعدلوا مع إخوانهم الدعاة؟!، وهذا هو بيت القصيد [كما يقولون] في كل ما ذكرناه عن العدل والإنصاف، فكم يشعر أحدنا بالمرارة عندما يرى بعضاً من إخوانه يتحرج من إيذاء الحيوان وظلمه ولا يتحرج من إيذاء وظلم إخوان له؟!.

أخي الداعية: تذكر أن إخوانك الذين تختلف معهم هم في مجموعهم صفوة هذه الأمة، وهم الأمل المرتجى بعد الله سبحانه وتعالى:

- فمنهم من قضى سنيَّ عمره يدعو ويعلم ويربي، وقد نفع الله به خلقاً كثيراً تأثروا به واستنوا بسنته، وهو وإياهم كانوا سبباً في هداية الضالين، وتوبة العصاة المفسدين.

- ومنهم من رزقه الله المال، فسخّره لنصرة دين الله والإنفاق في مختلف وجوه الخير، وقلة من الرجال يتحكمون بالمال ولا يتحكم المال بهم.

- ومنهم من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا، واستعذب الموت في سبيل الله، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

- ومنهم من قال بشموخ واستعلاء: ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾، وعندما ابتلاه الله بالسجن صمد صمود الأبطال، وما وهن ولا استكان، وعندما فرّج الله كربه خرج من سجنه وهو أشد اقتناعاً بدعوته.

- ومنهم من فارق الديار والأهل والخلان فراراً بدينه باحثاً في أرض الله الواسعة عن مكان آمن يعبد فيه ربه، ويلتقط أنفاسه ليكمّل مسيرة الجهاد في سبيل الله.

هؤلاء الإخوة لابد وأن لهم أخطاء ومن ذا الذي يخلو من الذنوب والأخطاء؟ ولابد أن تجد نفسك مضطراً لتفنيد هذه الأخطاء، وبيان مخالفتها للأحكام الشرعية، فلا بأس مما تفعل، ولكن لا تكتب وأنت في حالة غضب. ولا تتهم إخوانك في نواياهم، وأحسن الظن بهم، ولا تنس فضلهم في العمل الإسلامي، وإياك وظلمهم:

- قال محمد بن سيرين: "ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم، وتكتم خيره"[(١)].

هذا إذا ذكرت أسوأ ما فيه ولم تذكر أحسن ما فيه، فكيف إذا أشعت عنه مقالة السوء دون تمحيص ولا توثيق، وغفلت عن حديث رسول الله ﷺ: (حسب امرئ من الكذب أن يحدث بكل ما سمع).

- وقال سعيد بن المسيب: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا

(١) البداية والنهاية: ٩/ ٢٧٥.

وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فما كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله"[١].

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض رده على الرافضة الذين يظلمون أصحاب رسول الله ﷺ ويفترون عليهم: "ومعلوم أنا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل لا بجهل وظلم؛ فإن العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرم مطلقاً، لا يباح قط بحال"اهـ[٢].

وعندما خالف الدعاة هذه الآداب الشرعية، وكثرت الردود والاتهامات بينهم، وعرف عامة الناس عيوبهم ونقائصهم المزعومة هانوا في أعينهم، وتجرأ الأعداء عليهم، واستغل هذا في ضرب ذاك، وصدق فيهم قول الشاعر:

يا معشر القراء يا ملح البلد ... ما يصلح الملح إذا الملح فسد

❊ ❊ ❊

(١) البداية والنهاية: ٩/ ١٠٠.

(٢) منهاج السنة، لابن تيمية: ٥/ ١٢٦.

الفصل الثاني

درس لا ينسى

درس لا ينسى

كنا أربعة نسير في محاذاة نـهر، وشغلتنا المناظر الخلابة عن تجاذب أطراف الحديث حتى خُيِّل إلي وكأني أسير وحدي، في هذه اللحظـات قطـع الـدكتور الشيخ محمد أمين المـصري رحمـه الله جـدار الـصمت [وكـان أحـد الأربعـة] بسؤال باغت به أحدنا:

- فلان [ذكر اسم أحد الدعاة المشهورين] أليس له حسنات؟!.

- أجاب المسؤول: بلى، له حسنات.

-الشيخ: اذكر لي اثنتين منها؟.

وعندما عدد المسؤول اثنتين من هذه الحسنات، قال الشيخ: إذن له حسنات، ثم صمت، وصمتنا لأن المسألة التي أثارها لا تزال غير واضحة عندنا.

وعاد بعد هذا الصمت ليقول بتأثر بالغ:

سألت فلاناً [ذكر اسم داعية معروف عنـدنا] نفـس الـسؤال فـأنكر أن يكون له حسنة واحدة.. ثم عدنا إلى صمتنا، ولم تعد لنا حاجة إلى النهر وجمالـه الأخاذ.

كان بيننا - الثلاثة - وبين الداعية الذي يسأل عن حسناته خلاف، ومـع أننا لم نذكر هذا الخلاف من قبل أمام الشيخ، لكنه لابد وأن يكون علـى علـم

به، فأراد أن ينصحنا بشكل غير مباشر وكان لسان حاله يقول:

تذكروا أن لصاحبكم حسنات، وتذكروا أنه من العاملين لنصرة دين الله، وحذار أن تكونوا من الذين يبالغون في الحب والكره.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة، فلقد كان عالماً جهبذاً، ومربياً قديراً، وداعية مؤثراً، وكان ينأى بنفسه عن الصراعات الشخصية أو الحزبية، ويحرص على إقامة جسور مع مختلف الجماعات والعلماء، ولا يقصر في نصحهم، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومواقفه في مسجد المرابط - بدمشق - معروفة ومحمودة.

ومما يؤسف له أن الشيخ لم يعط حقه في الساحة الإسلامية، ولعل السبب في هذا الإهمال عدم قناعة الشيخ بتربية الأتباع الذين يجيدون فن التعصب لشيوخهم[١].

---

(١) ولد الشيخ عام ١٩١٤ م في مدينة دمشق، وفي عام ١٩٤١ م انتسب لكلية أصول الدين بالأزهر، وتخرج منها بعد أربع سنوات، وعمل مدرساً في ثانويات دمشق، وفي عام ١٩٥١ عُيِّنَ ملحقاً ثقافياً للسفارة السورية في باكستان، وكانت له جهود طيبة في نشر اللغة العربية خلال الخمس سنوات التي أقامها هناك، وفي عام ١٩٥٦ سافر إلى بريطانيا للتحضير لرسالة الدكتوراه وحصل عليها في عام ١٩٥٩ وكان موضوعها (معايير النقد عند المحدثين) ثم التحق بجامعة دمشق في نفس العام ١٩٥٩ كمدرس في كلية الشريعة، وفي عام ١٩٦٥ تعاقد مع جامعة الملك عبد العزيز – كلية الشريعة – في مكة المكرمة، وقبل وفاته بثلاث سنوات انتقل إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة رئيساً للدراسات العليا فيها، وكان له دور في وضع مناهجها، وتوفي رحمه الله في شهر رمضان ١٣٩٧ هـ الموافق لعام ١٩٧٧ على إثر عملية جراحية أجريت له في أحد مستشفيات سويسرا، ودفن في مكة المكرمة، رحمه الله. [عن مقدمة كتاب المسؤولية – وهو من كتب المترجم له – للشيخ محمد سليمان].

مثال تطبيقي:

انطلاقاً من هذا الدرس البليغ الذي علّمنا إياه الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله، فإني سوف أطرح هذا السؤال ثم أجيب عليه:

س: هل للجماعات الإسلامية حسنات؟!.

ج: نعم، لهم حسنات.

س: اذكر واحدة منها؟!.

ج: للسلفيين دور لا ينكر في الدفاع عن العقيدة، ونشر لواء السنة، وفضح أهل البدع والضلالة، ومن أجل ذلك فقد تعرضوا للأذى والمحن والتشهير، فما زادهم ذلك إلا صموداً وثباتاً وعطاءً.

ومن آثار هذه الجهود المباركة، إقبال هذا الجيل من أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان على كتب التوحيد والحديث، وتبني معظم الجماعات الإسلامية لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وشرح العقيدة الطحاوية، واهتمام دور النشر بطباعة هذه الكتب لأنها تحقق من وراء ذلك أرباحاً طائلة.

ومن آثار هذه الجهود المباركة أيضاً أن أصحاب البدع والأهواء صاروا يُخرِّجون الأحاديث التي يستدلون بها في مؤلفاتهم، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك فلن تشهد كتبهم رواجاً وانتشاراً، وكان معظم الكتاب قبل عقود قليلة لا يفرقون بين الحديث الصحيح والضعيف، ومن الأمانة أن ينسب هذا الإنجاز الكبير إلى الجماعات السلفية.

أما الإخوان المسلمون فقد كان لهم شرف تأسيس عمل جماعي تنظيمي يهدف إلى عودة الخلافة الإسلامية، وتحرير بلاد المسلمين من الاستعمار

والتبعية، وعندما دعا داعي الجهاد عام ١٩٤٨م من أجل تحرير فلسطين، لبوا النداء، وسالت دماء كثير من أعضائهم على ربى الأرض التي باركها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات، ولا يصح أن يذكر تاريخ القدس في العصر الحديث دون أن تذكر استماتة الإخوان في الدفاع عنها عام ١٩٤٨م، ولا يزال الإخوان المسلمون – مع غيرهم من الإسلاميين – يقاومون سياسة الاستسلام التي يسميها المنهزمون سلاماً، وما حركة حماس إلا فرعٌ من فروع الإخوان المسلمين.

أما جماعة التبليغ فلا زالت تقدم الدليل تلو الدليل على أنه من الممكن أن يتنقل الداعية من بلد لآخر داعياً في سبيل الله على نفقته الخاصة لا يتلقى مكافأة على ذلك من أحد، ولا ينتظر جزاءً ولا شكوراً إلا من الله الواحد القهار إن أكرمه ومنّ عليه بالأجر والثواب. لقد كانت جماعة التبليغ سبباً في توبة الضالين، وهداية المشركين الكافرين(١).

كان العلماء والقادة المؤسسون يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى، ويسدون الثغرات التي من الممكن أن يتسلل الشيطان منها فيفسد ذات البين بين الإخوة ويزرع الأحقاد والأضغان في النفوس، ويتمثلون قول الإمام الشافعي للذي اختلف معه في مسألة: "يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة".

وليأذن لي القارئ الكريم في الانتقال قليلاً إلى الأجواء التي ولدت في ظلها أهم هذه الجماعات:

يتحدث الشيخ حسن البنا – رحمه الله – عن موجة الإلحاد والإباحية في

(١) وأقول مثل ذلك في بقية الجماعات الإسلامية التي لم نأت على ذكر محاسنها.

المجتمعات الإسلامية فيقول:

"كما كان ينفس عن نفسي كذلك التردد على المكتبة السلفية، وكانت إذ ذاك قرب محكمة الاستئناف، حيث نلقى الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفي الإسلامي القدير [السيد محب الدين الخطيب]، ونلتقي بجمهرة من أعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحميتهم الدينية، أمثال فضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وأحمد باشا تيمور رحمه الله، وعبد العزيز باشا محمد رحمه الله، وكان إذ ذاك مستشاراً بمحكمة الاستئناف، ونسمع منهم بعض ما ينفس عن النفس، كما نتردد على دار العلوم، ونحضر في بعض مجالس الأستاذ رشيد رضا رحمه الله، ونلقى فيها الكثير من الأعلام الفضلاء كذلك، أمثال الشيخ عبد العزيز الخولي رحمه الله، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد العدوي فنتذاكر هذه الشؤون أيضاً. وكان للسيد رشيد رحمه الله جولات قوية موفقة في رد هذا الكيد عن الإسلام" [مذكرات الدعوة والداعية، ص: ٥١].

وعن قرار الجماعة القاضي بإصدار جريدة الإخوان المسلمين يقول البنا:

"لم نجد إلا جنيهين دفعهما الشيخ رضوان محمد رضوان، وهما رأس مال هذه المجلة، وقد كان، وحملت الجنيهين، وذهبت بكل بساطة وإيمان إلى المكتبة السلفية.. وهناك تفاهمت مع السيد محب الدين الخطيب - جزاه الله خيراً على كل شيء - أن يكون مديراً للمجلة، ولكن تطبع بالسلفية، وأن يكون الجنيهان دفعة أولى، وما بقي بعد ذلك فعلى الله، وابتسم الرجل المؤمن المجاهد المحبوب، ووافق على ذلك هو الآخر بكل بساطة وإيمان، فصدر التصريح وبدأ الطبع، فظهرت جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية العدد

الأول بتاريخ الخميس ٢٨ صفر ١٣٥٢هـ وذلك يوافق أواخر شهر مايو ١٩٣٣م" [المذكرات، ص: ١٤٠].

وفي موضع آخر من المذكرات يتحدث الشيخ حسن البنا رحمه الله عن مجلة المنار بعد وفاة الشيخ رشيد رضا[1] رحمه الله:

"توقفت المجلة عن الصدور مرة ثانية، وقد عز على الإخوان أن يخبو ضوء هذا السراج المشرق بالعلم والمعرفة من اقتباس الإسلام الحنيف، فاعتزموا أن يتعاونوا مع ورثة السيد رحمه الله على إصدار المنار من جديد، وقد تم الاتفاق على ذلك، وصدر العدد الخامس من السنة الخامسة والثلاثين في ١٨ يوليو ١٩٣٩" [ص: ٢٥٣].

وكان الشيخ حسن البنا هو رئيس التحرير الجديد.

وفي عام ١٣٧٢هـ أصدر الأستاذ سيد قطب رحمه الله كتابه (دراسات إسلامية)، واختار الأستاذ محب الدين الخطيب ليقدم الكتاب إلى القراء، وكان مما قاله الخطيب في هذه التقدمة:

".. كان من حق هذا السِّفر النفيس، أن يتولى تصديره رجل أصلب مني عوداً، وأشد قوة، وأحدث سناً، وأجرأ على مواجهة الناس بالحق، إنه كتاب السنة في أدب القوة، ولا أعرف كتاباً في هذه السنة يتحدث عن الحق بلسان الحق، كما تحدث أخي الألمعي البليغ الأستاذ سيد قطب في هذا الكتاب.

لذلك كان من الظلم له أن يكتب مقدمته إنسان معتدل متئد وهو في العقد السابع من حياته. لقد واجه سيد قطب بكلمة الحق طوائف كثيرة في

(١) توفاه الله في: ٢٣/ ٥/ ١٣٥٤هـ، الموافق: ٢٢ أغسطس ١٩٣٥م.

كتابه هذا، وكلمة الحق مرة، والذين صفع وجوههم بها يتصرفون بأكثر ما في الأرض من قوى الباطل، وهم كثيرون ملء الدنيا، ولا يقف في وجوه هؤلاء إلا المؤمن القوي، فهنيئاً للأستاذ سيد قطب ما متعه الله به من قوة الإيمان" ا هـ.

وقد سمعت العلامة عبد الرزاق العفيفي[١] رحمه الله يقول: "كان الشيخ حامد الفقي يكثر من نقد الأستاذ حسن البنا، وكنت أقول له:

يا شيخ حامد: حسن البنا يقول للشباب في المعاهد والجامعات [إلى الإسلام در][٢]، وعمله هذا مرحلة من مراحل الدعوة وهو مأجور عليه إن شاء الله، فدعه وشأنه وكمّل معهم المرحلة التي تلي المرحلة الأولى.

أرأيت أخي كيف كان محب الدين الخطيب مدير تحرير أول جريدة تصدر للإخوان المسلمين، وحسن البنا كان رئيس تحرير مجلة المنار بعد وفاة صاحبها رشيد رضا، كما أن حسن البنا كان من كتاب المجلات السلفية، ومن شاء مزيداً من المعلومات فليتصفح أعداد مجلة الفتح وغيرها.

أظنك أخي قد لمست العطف الأبوي الذي تجلى بسرعة استجابة الخطيب لكل ما طلبه منه الشاب حسن البنا مع ما في ذلك من مغامرة مادية ومعنوية، إذ كيف يتكفل هذا الرجل صاحب الخبرة الطويلة بنفقات مجلة لا يملك أصحابها إلا جنيهين؟ ثم يغامر بسمعته فيقبل إدارة مجلة يملكها شباب ليس لهم سمعة في عالم الفكر والأدب، وقد يعرضونه لمواقف قانونية هو في

---

(١) من رموز الدعوة السلفية، كان رئيساً لأنصار السنة في مصر، ثم انتقل إلى الجزيرة العربية، فكان عضواً في هيئة كبار العلماء، ونائب رئيس لجنة الفتوى.

(٢) يستخدم العسكريون هذه العبارة في تدريباتهم.

غنى عنها.

لم يحاول محب الدين تثبيط همة حسن البنا، ولم يقل لهذا الشاب صاحب الهمة العالية لماذا إصدار جريدة أخرى؟ هذه مجلة الفتح التي قد عرفها الناس وأنت أحد كتابها، وصفحاتها مفتوحة لبقية إخوانك.. لم يقل هذا ولا غيره لأنه كان يعلم حاجة الدعوة إلى همة الشباب الوثابة، كما أنه كان مقتنعاً إلى أن ساحة العمل الإسلامي لا ينبغي أن تكون وقفاً على شيوخ الأزهر.

وكان الإخوان المسلمون يقدّرون ثقة مرشدهم بخبرة الخطيب وحكمته وسداد رأيه، فعندما نفذّت أجهزة أمن فاروق مؤامرة قتل البنا، طلب الإخوان من نائب المرشد العام أحمد حسن الباقوري استشارة الخطيب في مسألة الثأر للمرشد فأبى عليهم ذلك وحذّرهم منه[١].

* * *

(١) انظر كتاب: (بقايا ذكريات)، أحمد حسن الباقوري.

إنها السنن

هكذا كان الرجال المؤسسون يتعاونون على البر والتقوى وطاعة الله.. وهكذا كان الأئمة الأربعة، يتتلمذ صغيرهم على كبيرهم، كما يعدلون في تقويم بعضهم لبعض، وقد ذكرنا قبل قليل دفاع الإمام أحمد عن الشافعي، وبيان فضله عليه، وما لم نذكره كثير جداً، وكان من المفترض أن يتمسك التلامذة بنهج شيوخهم، غير أن الذي حدث مع مرور الزمن وتقادم العهد خلاف ذلك. لقد أصبح التزمت والتعصب المذهبي مشكلة المشاكل في تاريخنا، وقلد الأتباع هواة تفجير الخلافات بين أبناء الأمة الواحدة، وخالفوا أئمتهم في دعوتهم إلى الوحدة والائتلاف وهي أصل من أصول الدين الإسلامي، ألا فليحذر إخواننا من استبدال التعصب الحزبي بالتعصب المذهبي.

أخي الداعية: هل أنت ممن يتحدثون أمام الناس عن صالح أعمال الذين تختلف معهم في الاجتهاد أو الانتماء؟.. وهل تسر إذا سمعت الناس يشيدون بإنجاز حققته جماعة إسلامية لست عضواً من أعضائها، ثم تذهب إليهم مهنئاً مباركاً بما حققوه؟، أم أنك تصمت، ويضيق صدرك، ثم تنطلق قائلاً:

نعم الأمر كما تقولون، ولكن!!، وبعد (ولكن) تذكر مثالب هذه الجماعة، ويفقد هذا الإنجاز معناه، وتصبح موافقتك الشكلية فرصة عندك لانتقاد هذه الجماعة، ومحاولة لتشويه سمعتها.

إن كنت من الصنف الأول فاحمد الله تعالى الذي منّ عليك بنعمة العدل

والإنصاف، وإن كنت من الصنف الثاني فحاسب نفسك قبل أن تُحاسَب.

وهل يرضيك اغتياب جلسائك للغير، فتشاركهم الحديث، وتقدم لهم معلومات يجهلونها وقد يختلط فيها الحق بالباطل، أو تقابل الحديث بابتسامة تنم عن الموافقة وإن لم تتكلم، أم أنك تتذكر حديث رسول الله ﷺ: (من رد عن عرض أخيه كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة)[1]، فتذب عن عرض أخيك، وتنصفه في غيبته، وتدفع عنه الظلم، وتلقّن المستمعين درساً في حرمة الغيبة والنميمة.. لا تتردد أخي المسلم في اختيار الطريقة الثانية.

وأنت يا من أكل بعض إخوانك لحمك، وتمادوا في ظلمك، لا تقابل السيئة بمثلها، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

وإياك والاستدراج إلى مهاوي الفتن، واترك مجالاً لظالميك ليحاسبوا أنفسهم، وتمثل قول الشاعر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلِفٌ جِدّا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهمو ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غنى ... وإن قل مالي لم أُكلّفْهمُ رِفْدَا[2]

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٦/ ٤٤٩، وقال ﷺ في هذا المعنى: "من حمى مؤمناً من منافق [أراه قال] بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شَيْنَهُ به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال"، صحيح أبي داود: ٤٠٨٦.

(٢) للشاعر: المقنع الكندي، ديوان الحماسة.

اعلم أخي الداعية أن من العدل المسارعة إلى الاعتذار من أخيك عندما ترتكب خطأً نحوه، كما أنه من العدل قبول الحق من المخالف، وإن كان هذا المخالف جماعة، ولا يجوز لك استئذان جماعتك في مسألة قبول الحق، فالحق أقوى من الجماعات ومن الرجال مهما بلغ شدة إعجابك بهم، وعظيم تقديرك لعلمهم وفضلهم.. فارفع شعار العدل في جميع أمورك إذا أردت أن تعود هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

* * *

الفصل الثالث

سؤال وجوابه

سؤال وجوابه

عندما جاء دور الأسئلة في المحاضرة[١] التي سميتها "العـدل والإنـصاف" أيقنت أن بعض الحضور لم يستفد من المحاضرة، ومما ورد فيها من الأدلة، لهـذا فقد أعدت الإجابة على أهم هذه الأسـئلة وحرصـت علـى إلحاقهـا بالمحاضـرة لتكون جزءاً منها، وتعم الفائدة إن شاء الله.

الـسؤال الأول: أوشـكت المحاضـرة علـى الانتهـاء، وأخـشى أن يفهـم الحضور من خلال ما ذكرته عن جماعة الدعوة والتبليغ أنـك تـوثقهم وتـزكيهم فهلا تفضلت بالحديث عن انحرافاتـهم حتى يحذر الناس منها؟!.

الجواب: ذكرت في المحاضرة حسنة واحدة من حسنات كل جماعة من أبرز جماعات الدعوة، وقلت عن جماعة التبليغ: "لازالت تقدم الـدليل تلـو الـدليل على أنه من الممكن أن يتنقل الداعية من بلد إلى آخر في سـبيل الله علـى نفقتـه الخاصة لا يتلقى مكافأة على ذلك من أحد، ولا ينتظـر جـزاءً ولا شـكوراً إلا من الله الواحد القهار"، وقلت أيضاً: "لقد كانت جماعـة التبليـغ سـبباً مهمـاً في توبة الضالين، وهداية المشركين الكافرين".

واشترطت أن لا يتبع ذكر هذه الحسنة كلمة (ولكن) ثم يذكر بعد ولكن جملة من مثالب وعيوب هذه الجماعة، ويصبح ذكر هذه الحسنة مجالاً لانتقاص

---

(١) كان هذا البحث في الأصل محاضرة ألقيتها في ندوة من ندوات جمعية عقبة للتعاون والإصـلاح ببريطانيا.

الجماعة وتشويه سمعتها، فما هو وجه الخطأ فيما ذكرته، ولماذا ضاق صدر السائل من ذكر الحسنة، وخشي أن ينفضَّ المجتمعون دون أن نشبع جماعة التبليغ نقداً وتجريحاً وتسفيهاً؟! أما كان يكفيه قولي في نفس المحاضرة: "هؤلاء الإخوة لابد وأن لهم أخطاء ومن الذي يخلو من الذنوب والأخطاء؟!، ولابد وأن تجد نفسك مضطراً لتفنيد هذه الأخطاء، وبيان مخالفتها للأدلة الشرعية، فلا بأس مما تفعل، ولكن لا تكتب وأنت في حالة غضب، ولا تتهم إخوانك في نواياهم، وأحسن الظن بـهم، ولا تنس فضلهم في العمل الإسلامي، وإياك وظلمهم".

قد يكون السائل حسن النية ويردد كلاماً سمعه من غيره دون أن يـدرك أبعاده ومراميه، ولكن السؤال بحد ذاته أرعبني لأنه يمثل عقلية شريحة واسعة في مجتمعاتنا تبحث دائماً عن مواطن الاختلاف، وتشتغل في تتبع أخطاء الآخـرين وعيوبـهم، تضفي على هذه الاهتمامات المشبوهة حلةً شـرعية، وتـزعم أن مـا تفعله عبادة تتقرب بـها إلى الله سبحانه وتعالى، وكان بين الحضور من يرى مثل رأي السائل، حتى أن أحدهم قال لي مشافهة: هذه محاضرة مجاملات وتطييـب خواطر!!.

لا أريد هاهنا الوقوف عند قول هذا الأخ وبيان سوء فهمه لما سمـع في هذه المحاضرة، وإنما يهمني مناقشة جوهر المشكلة المثارة من خلال الجواب علـى السؤال الآتي:

هل أنا ملزم إذا ذكرت حسنة من حسنات داعية أو جماعة أن أذكر عيوبه ومآخذي ثم مآخذ الآخرين عليه؟!.

لنحتكم جميعاً إلى حديث رسول الله ﷺ، ثم إلى أقوال العلماء:

١ – عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عنـد عمـرو

ابـن العـاص: سمعـت رسـول الله ﷺ يقـول: (تقـوم الـساعة والـروم أكثـر الناس). [فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول مـا سمعـت مـن رسـول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذاك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنـهم لأحلـم النـاس عنـد فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كـرة بعـد فـرة، وخيرهـم لمـسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك]اهـ[1].

قال العلامة صديق حسن خان[2]: "لم يشرح النووي هذا الحديث ولم يـبين من المراد بـ (الروم)، والظاهر أنـهم النصارى، وهذه الخـصال الخمـسة موجـودة فيهم، وهم ولاة الأمر اليـوم في أكثـر الأرض، وهـذه معجـزة ظـاهرة للـنبي ﷺ حيث وقع ما أخبر به مطابقاً لنفس الأمر، ولله الأمر من قبل ومن بعد".

٢ – قال محمد بن إسحاق: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصـحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله عـز وجـل، ومـن عمـه أبـي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بـها ملكاً لا يظلم عنده أحـد، وهـي – أرض صـدق – حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه)[3].

تأمل – حفظك الله – إلى هـذه الخـصال النـادرة الـتي اجتمعـت في أمـة كافرة، وعمرو بن العاص رضي الله عنه من أعرف الصحابة رضوان الله عليهم

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر النـاس، انظـر مختصر صحيح مسلم للمنذري، الحديث رقم: ٢٠٢٦.

(٢) صديق حسن خان ولد عام ١٢٤٨ هـ وتوفي عـام ١٣٠٧ هـ، وقـد كانـت بريطانيـا والـدول الأوربية خلال هذه الفترة تحكم أكثر أهل الأرض كما قـال الـشيخ صـديق حـسن في شـرحه للحديث.

(٣) البداية والنهاية: ٣/ ٦٦.

بأحوال الروم، ففي جاهليته كان يتعامل معهم بالتجارة، وحاربـهم بعد إسلامه في فلسطين، ولم يذكر هذه الخصال عنهم إلا بعـد أن تثبـت مـن نقـل المـستورد القرشي، ولم يجد نفسه ملزمـاً بـذكر عيوبـــهم ونقائـصهم وهـو يتحـدث عـن صفاتـهم المحمودة.

وتأمل أيضاً ما قاله رسول الله ﷺ عن النجاشي: (فإن بـها ملكاً لا يظلم عنده أحد)، ولم يكن النجاشي قد أسلم، ووصف أرضه بأنـها أرض صـدق، لم يضف رسول الله ﷺ إلى ما قاله عن النجاشي [ولكن] ثم يذكر بعدها مساوئه وأخطاءه، ولو كان مثل هذا الأمر لازماً وواجباً لفعله رسول الله ﷺ.

وإذا كان ذكر الخصال الحميدة في الكفار لا يلزم أن يـصحبه دائمـاً ذكـر الخصال الذميمة فيهم، فما بالكم بجماعة إسلامية تـدعو إلى الله، وتبـذل أنفـس ما تملكه من إمكانات مادية ومعنوية من أجل هداية الضالين وإرشـاد التـائهين، وحاشا لله أن يكون هؤلاء المؤمنون مثل أولئك الضالين المشركين.. وفضلاً عن ذلك فقد وثق هذه الجماعة، وشهد لها بـالخير مفـتي الـديار الـسعودية الـسابق العلامة محمد بن إبراهيم رحمه الله، ومفتي الديار السعودية الحالي العلامـة عبـد العزيز بن باز[1].

أشاع بعض خصوم جماعة التبليغ أن الشيخ عبد العزيز بن باز قد تراجـع عن تأييد جماعة التبليـغ، فقـال الـشيخ - رحمـه الله - في صـدد رده علـى هـذه الإشاعة:

"فأخبركم أني لا زلت على رأيي في الجماعة المذكورة فيمـا كتبتـه عـنهم قديماً وحديثاً من الكتابات الكثيرة، وما كتبـه سـلفي شـيخنا الـشيخ محمـد بـن

(١) رحم الله الشيخ فلقد توفاه الله بتاريخ ٢٦ محرم ١٤٢٠ هـ.

إبراهيم آل الشيخ قدس الله روحه ونور ضريحه.. "

وأضاف قائلاً: "فالواجب شكرهم على عملهم وتشجيعهم وتنبيههم[١] على ما قد يخفى عليهم، وذلك من باب التعاون على البر والتقوى والتناصح بين المسلمين إلا أني أنصحهم وجميع المسلمين لاسيما الشباب أن لا يسافر منهم إلى بلاد الكفار إلا أهل العلم والبصيرة لما في ذلك من الخطر العظيم على كل من ليس له علم بالشريعة الإسلامية والعقيدة الصحيحة التي بعث الله بها محمداً ﷺ، ودرج عليها سلف الأمة. أما ما نسبه المعارضون لهم عني من الرجوع عن رأيي فيهم فهو كذب علي بل إنني نصحتهم ووبختهم على عملهم، وقلت لهم فيما قلت متمثلاً بقول الشاعر:

أقلوا عليهم لا أباً لأبيكموا   من اللوم أو سُدُّوا المكان الذي سَدّوا

وحرضتهم على كثرة الاجتماع بهم، والخروج معهم، وأوضحت لهم ما فيه من الفوائد، وطلبت منهم أن يتهموا الرأي، وينظروا في العواقب وبينت لهم ما في شقاقهم وخلافهم من الشر العظيم، وسوء العواقب في الدنيا والآخرة، وأن ذلك من الشيطان.. أعاذنا الله منه ليصرف الناس عن الدعوة إلى الله، ويشغلهم عنها بفساد ذات البين، وكثرة القيل والقال.. هذا ما أدين الله به وأعتقده، وأسأل الله أن يرينا الحق حقاً ويمنحنا الثبات عليه، والباطل باطلاً ويمن علينا اجتنابه، ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على عبده ورسوله الذي بعث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[٢].

(١) يشير الشيخ إلى تنبيههم ونصحهم إذا أخطؤوا، وهذا يعني أن التأييد ليس مطلقاً.

(٢) فتوى بتاريخ ٢٧/ ١/ ١٤٠٧هـ، وقد نقلتها باختصار يسير.

لقد كان رد الشيخ – رحمه الله – مفحماً للذين أشاعوا عنه قولاً لم يقلـه، ويصلح أن يكون رداً على هذا الذي غضب لأني ذكرت حسنة واحدة لجماعة التبليغ، ويصلح أيضاً أن يكون رداً على كل من يشغل نفـسه، بالقيـل والقـال، وكثرة السؤال، وإشاعة الخلاف، وإفساد ذات البين بين عباد الله المؤمنين.

ومما لفت نظري أن الشيخ غضب من الذين زعموا أنـه رجـع عـن رأيـه الأول في توثيق هذه الجماعة، وقلـيلاً مـا يغـضب الـشيخ في أحاديثـه وردوده، ولينظر من شاء إلى قولـه: "أما ما نسبه المعارضون لهم عـني مـن الرجـوع عـن رأيي فيهم فهو كذب علي بل إني نصحتهم ووبختهم على عملهم".

وفي غضبة الحليم دليل واضح علـى أن المـسألة مهمـة ويجـب أن تحـسم بطريقة يفهمها الذين يعيشون على نـهش لحوم الدعاة.. وبعد أن أشار الشيخ إلى كذب قولهم حذرهم من عاقبة الـشقاق وإفـساد ذات الـبين ثـم قـال: "وأن ذلك من الشيطان" فهل يرعوي هؤلاء الذين لا يتحملون ذكـر حـسنة واحـدة لداعية أو جماعة يختلفون معها في الرأي والاجتهاد؟! وهل يرتدع هؤلاء الـذين لا هم لهم إلا تتبع سقطات النـاس وزلاتـهم، ثـم اتخـاذهم هـذه الانحرافـات منهجاً لهم، وديناً يتعبدون الله به؟!.

سائل آخر ينتمي إلى شريحة أخرى من شرائح العمل الجمـاعي الـدعوي مناقضة للشريحة التي ينتمي إليها السائل الأول، أعرب عـن إعجابـه بالمحاضـرة ودعا إلى مزيد من هذه المحاضرات والكتابات، ترى هل كان سـيقف مثـل هـذا الموقف لو تضمنت المحاضرة نقداً لجماعته؟!.

من منطلق معرفتي بواقع الحال أقول: لقد أشاد المحاضـر بجماعـة الـسائل وبدورها الإيجابي في ميدان العمـل الإسـلامي، وهـذا مكـسب للجماعـة مـن

رجل يختلف معها، وهو أيضاً الحق والعدل والإنصاف، ويستحق التعميم ليقرأ الناس ويسمعون فضائل هذه الجماعة من أفواه خصومها**!!**.

ولو تضمنت هذه المحاضرة نقداً لجماعة السائل لاختلف الموقف تماماً، وأقل ما سوف يقوله إذا كان حليماً واسع الصدر (وهو كذلك إن شاء الله): ليس هذا هو الموضع المناسب للنقد.

من جهتي سوف أستمر على هذا النهج إن شاء الله، ولن أحيد عنه، ولكن الأمور لا تسير نحو الأفضل من طرف واحد، والعدل عام يشمل النفس وأولي القربى والأصدقاء والأعداء، وإنني أدعو هذا الأخ الفاضل إلى ممارسة النقد الذاتي داخل إطار جماعته من أجل تهيئة الأجواء المناسبة لوحدة الصف ورأب الصدع، ولعل ذكر المثالين التاليين يلفتان نظر هذا الأخ وأمثاله إلى أهمية الإصلاح من الداخل:

المثال الأول: اطلعت على نشرة دورية تصدر في إحدى الدول الغربية، تمثل موقف هذه الجماعة من الأحداث التي تشهدها الساحة العربية، ولقد استوقفتني أمور ثلاثة في هذه النشرة:

الأمر الأول: كان موقف هذه النشرة من أحداث الجزائر، ترداد لما يقوله ممثل هذه الجماعة، وهو لا يختلف كثيراً عن موقف السلطة الباغية الطاغية التي قتلت بصورة وحشية أكثر من خمسين ألفاً[1] من الدعاة الأبرياء، وكانت تلقي بجثث البارزين منهم أمام المساجد.

إنني أفهم أن تستنكر النشرة الجرائم التي ارتكبها الغلاة، وأفهم كذلك أن تقف موقفاً مخالفاً لجمهور الإسلاميين بسبب اختلاف الاجتهادات، لكنني لا

(١) تضاعف هذا العدد فيما بعد.

أفهم تجاهل المجازر التي يرتكبها الطغاة العسكريون، ولا أفهم أيضاً الاشتراك بوزارة علمانية خبيثة، وهو ما فعلته هذه الجماعة، ولا أفهم كيف تكون منظمات حقوق الإنسان غير المسلمة في ديار الغرب أكثر رحمة من ممثل هذه الجماعة في الجزائر. لقد استمعت ذات مرة إلى مقابلة إذاعية عن الوضع في الجزائر، وما كنت أعرف في البداية اسم هذا الرجل الذي تستضيفه الإذاعة، ولكنني تساءلت وأنا أتابع أجوبته: من أين جاء العسكريون بممثل لهم يستطيع استخدام المفردات الإسلامية؟ وفوجئت أخيراً بأن هذا الذي يتحامل على الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ويلتمس الأعذار للنظام هو مسؤول هذه الجماعة!!.

فإذا كانت هذه النشرة لا تريد نصرة المظلومين من إخوانهم (وهذا أمر لا نريده ولا نرضاه لهم) فلا أقل من السكوت، وعدم ترداد أقوال ممثل الجماعة.

الأمر الثاني: استنكرت النشرة سياسة البطش وكم الأفواه في الوطن العربي، ونددت بالاعتقالات العشوائية، لكنها وهي تتحدث عن السجناء في البلدان العربية لم تشر من قريب أو بعيد إلى أسماء الذين لا ينتمون لجماعتهم.. كيف ذلك؟ لعلي لم أفهم ما يقولون؟ وبعد أن قرأت المقال مرة ثانية وثالثة اتضح لي صحة ما فهمته في المرة الأولى، وتعجبت أشد العجب من منطق هؤلاء الذين يفصلون بين السجناء الذين ينتمون لجماعتهم، فيدافعون عنهم. ويطرحون قضيتهم بقوة، وبين السجناء الذين لا ينتمون إلى جماعتهم فلا يشيرون إليهم إلا بالنقد والاستنكار.

إننا طالما تحدثنا عن السجناء الذين ينتمون إلى هذه الجماعة ولا فضل لنا في ذلك لأن الله تعالى قد أمرنا بنصرة إخواننا، والواجبات الإسلامية ليس فيها سياسة المعاملة بالمثل.. ولكن أين هؤلاء من هذه الواجبات؟.. ألا يشعرون

بشعور إخوانـهم، وأين هـم مـن حـديث رسـول الله ﷺ: (المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سـائر الجسد بـالحمى والـسهر)، ألا يرون أن رسول الله ﷺ قال: "المسلمون" ولم يقل: "الحزبيون منهم"، فإن قالوا: نحن نستنكر نـهجهم ومواقفهم وتسرعهم، قلنا لهم: ليس المطلوب منكم تأييـد خطهم، ولكن المطلوب منكم استنكار الظلم الذي لحق بـهم، وأنتم مـن أدرى الناس بظلم الطغاة، وقد عانيتم ألواناً من تنكيلهم لا تنـسى مـع أنكـم تـرفقتم بـهم، وألنتم معهم الخطاب، وآثرتم الدعوة السلمية فما أغنى عنكم ذلـك مـن السجن والتشريد والابتلاء شيئاً.

الأمر الثالث: بالغ أصحاب النشرة في الحديث عن قوتـهم، وعن التفاف الناس حولهم في بلدهم، وكانوا يكررون القول بأنــهم وحـدهم الـذين يتبنـون شمولية الدعوة الإسلامية، ولا يهتمون بجانب مـن جوانـب العمـل الإسـلامي ويهملون الجوانب الأخرى كما تفعل الجماعات الأخرى.

إنني أعلم جيداً أن العمل الإسلامي في مفهومه الجمـاعي في بلـد هـؤلاء الإخوة حديث النشأة، وطغيان النظام الحاكم لا يسمح بترسيخ جـذور الـدعوة في أعماق القواعد الشعبية، وهذا يعني أن الحديث عن قوتــهم أو قـوة غيرهـم ادعاء لا يسنده دليل، أما شمولية الدعوة فهي سمة أساسية من سمات ديننا لا يستطيع المسلم إنكارها، ولو تطلع هؤلاء الإخوة حولهم بعين الواقع لعلموا أن أكثر العاملين إلى الله (من جماعات وأفراد) يتبنون الشمولية في دعوتــهم، ومـن جهة أخرى فقد تكون الشمولية حجة على الذين ينادون بـها إذا لم تعط حقها، وإذا طغـت الجوانـب الغوغائيـة العائمـة علـى التأصـيل الـشرعي والإعـداد التربوي.

المثال الثاني: ضمَّني لقاء مع بعـض هـؤلاء الإخـوة، وتناولنـا في حـديثنا

أموراً كثيرة، ولكن معظم أحاديثهم كانت تدور حول مقال لشيخ من كبار شيوخهم كتبه يرد به على فتوى أصدرها شيخ جليل فاضل.. أصغيت إليهم وهم يتحدثون واحداً بعد الآخر عن قوة مقال شيخهم وسعة إلمامه وغير ذلك من التبجيل والتضخيم، وآلمني بعد ذلك انتقالهم إلى حديث آخر دون أدنى إشارة إلى موقف غير شيخهم من هذه المسألة، وهنا تدخلت فقلت لهم:

حقاً كان رد شيخكم مهماً ومفيداً، وكان الشيخ – حفظه الله – ملتزماً بالأدب النبوي، وأعجبني تواضعه الجم مع من هو أكبر منه علماً وسناً، ولهذا فقد سارعنا إلى نشر مقاله في مجلة (السنة)، لاقتناعنا بما كتبه، وحرصاً منا على أن لا تكون لنا مواقف سلبية مع من نختلف معهم في الاتجاهات والانتماءات، ونود منكم أيها الإخوة المعاملة بالمثل بل نود أرباع أو أسداس المثل، ونود منكم قبل ذلك العدل والإنصاف مع إخوانكم المسلمين جميعاً.

قالوا: كيف؟!.

قلت: لماذا أطنبتم في الحديث عن مزايا وأهمية فتوى شيخكم، وسكتُّم عن موقف شيوخ آخرين قابلوا شيخهم الجليل الذي أصدر الفتوى (إياها)، وناقشوه فيما أفتى به، وأثبتوا من خلال مناقشتهم أموراً غابت عن ذهن الشيخ، ثم سجلوا المقابلة بشريط (كاسيت) جرى توزيعه في جميع بلاد العالم، وكان هؤلاء الشيوخ يعلمون تمام العلم أنهم سيدفعون الثمن باهظاً، ومع ذلك لم يترددوا فيما أقدموا عليه، وقبلوا نتائج عملهم بكل ارتياح وطيب خاطر. وكان السجن من جملة هذه النتائج، ولا يزالون منذ ذلك التاريخ رهن الاعتقال، أما شيخكم فقد كان يعلم أنه لن يتعرض بسبب هذا الرد لأية مساءلة أو اعتقال، فكيف طاوعتكم ضمائركم – أيها الأخوة – أن تتجاهلوا موقف هؤلاء الشيوخ الأبطال؟!.

يلمس المراقب مصداق ما ذكرته في هذين المثالين في خطب الجمعة وفي الندوات العامة والخاصة، وفي المجلات والمؤلفات، وعلى هذا الظلم يتربى الأنصار والأعوان، وتنشأ الأجيال، وتحدد العلاقات والأواصر بين الأخوة، ويقابل الآخرون هذا التعصب بمثله أو بما هو أشد منه، فالحق ما نفعله وحدنا دون غيرنا – على حد زعمهم –، ولا نستنكر الطغيان إلا إذا كنا نحن وحدنا ضحاياه، ولا شأن لنا بغيرنا، لقد حولنا بسوء عملنا جماعات الدعوة إلى قبائل متصارعة متناحرة، وتاريخ كل جماعة ورجالها ليس له أية صلة بالجماعة الأخرى، فشيوخكم غير شيوخنا، ومشكلاتكم غير مشكلاتنا. وقد برع البعض في إصدار البيانات التي يتبرأ فيها من إخوانه، وهم في أشد الحاجة إلى مد يد العون إليهم وشد عضدهم، ومن عقوبة الله العاجلة لهؤلاء الناس أن أجهزة إعلام الطغاة ترفض هذه البيانات وتعتبرها نوعاً من أنواع التضليل والخداع، وذلك لأن الجماعات الدعوية في منظورها جماعة واحدة وإن زعمت خلاف ذلك، وهي كلها قائمة على العنف والإرهاب.

والله الذي لا إله إلا غيره إننا لن نحقق أهدافنا إلا إذا تخلقنا بأخلاق سلف هذه الأمة وعدلنا في أحكامنا وأعمالنا وأقوالنا، وهكذا كان الرجال الذين أسسوا هذه الجماعات المعاصرة.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح

الباب الثاني

الإرهاب داخل الصف الإسلامي

ويشمل الفصول التالية:

الفصل الأول: أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب.

الفصل الثاني: الإرهاب الفكري.

الفصل الثالث: الدوافع والأسباب.

الفصل الأول

أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب

- المثال الأول من تجربة النظام الخاص
- المثال الثاني من سورية
- المثال الثالث من مصر
- المثال الرابع من أفغانستان
- المثال الخامس من الجزائر

أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب

في غمرة وقوع قتال مسلح بين مجموعة إسلامية، وطغاة مجرمين، قُتِلَ شيخ من الشيوخ المعروفين بتعاونهم مع النظام، واستغلت السلطة هذا الحدث لتؤلب الرأي العام ضد أعدائها، وتوهم الشيوخ كلهم بأنهم مستهدفون من قبل هذه المجموعة التي اتهمتها بقتل الشيخ.

كان من المتوقع أن يبقى هذا الحدث في حدوده الطبيعية ومن غير مضاعفات، لولا خلاف هذه المجموعة مع جماعة كانت الأولى جزءاً منها ثم انفصلت عنها بسبب تبنيها المواجهة المسلحة مع النظام.. ومن بين الاتهامات المتبادلة بين الطرفين ادعاء الجماعة بأنها تلقت تهديداً من قيادة المجموعة بقتل نفر منهم إذا استمروا في حوارهم مع السلطة، وإن أمراً قد صدر بقتل الوسيط بينهم وبين النظام، والذي كان بالأمس شخصية قيادية في هذه الجماعة ثم تخلى عنها وعن العمل الإسلامي كله.

في أحد لقاءاتي المحدودة مع قائد هذه المجموعة سألته عن مدى صحة ما يقوله إخوان الأمس، فضحك طويلاً ثم قال: كنا نعلم أن هذه التهديدات تخيفهم، وتدفعهم إلى قطع حوارهم مع السلطة، وليس وارداً عندنا قتل أحد منهم.. ثم استرسل يقول: ليست هذه هي المرة الأولى التي نهددهم فيتراجعون، فذات مرة كنا نعلم أنهم سيعقدون اجتماعاً مهماً، كما كنا نعلم المكان والزمان، وبينما كانوا مستغرقين في اجتماعهم اقتحمت المنزل مجموعة

مسلحة من أفرادنا ترتدي لباس رجال الأمن[١].. الخ، ومع ذلك فإننا نحرص على أن يفهموا بأننا جادون في تنفيذ هذه التهديدات!.

صدمتني إجابة الأخ على سؤالي، فقد كنت أعتقد أن الرواية ملفقة لا أصل لها، وصدمتني أيضاً ضحكاته:

أيجوز التهديد بالقتل إذا اختلفت الاجتهادات؟ ومن ثم أيجوز أن يكون هذا التهديد مزاحاً، أو أن يكون القصد منه التخويف؟ وما الضمان لعدم تنفيذ هذه التهديدات؟.

جاء الجواب على هذه الأسئلة بعد حوالي عام واحد، كانت علاقات الطرفين خلاله قد مرت بمراحل شديدة التقلب والتناقض، فقد عادوا جماعة واحدة بعد العداوة والتهديد بالقتل، ونظَّم الطرفان زيارات للقواعد كانوا يتبادلون فيها الثناء والاحترام، وكان التلامذة بشكل خاص يشيدون بدور شيوخهم المجيد في التربية والبناء.. وبعد مضي أشهر قليلة بدأ التلامذة يتحدثون عن مؤامرات، يدبرها الشيوخ في الخفاء، والشيوخ ينكرون ذلك، ويحاولون سحب ما بقي من البساط تحت أقدام التلامذة.

وتفجّر الخلاف بعدما أعلن رسمياً عن تحالف الشيوخ مع الأحزاب العلمانية، ومن قبل فقد نجح الشيوخ بدهائهم باحتواء عدد من قيادة المجموعة وأفرادها، وهم الذين ربوهم ويعرفون جيداً مواطن الضعف عندهم.

هذه المرة كان الخلاف أعنف من المرات السابقة، وحكم التلامذة على شيوخهم بالردة[٢]، وراحوا يجمعون أقوالاً شاذة ويقدمونها على أنها فتوى

(١) ليس مهماً ذكر بقية هذا الخبر.

(٢) مما يقتضي التنويه أن هذه الأمثلة أصبحت في ذمة التاريخ، ولم تعد ملكاً لهذه الجهة أو تلك،

وأدلة، وعقوبة المرتد القتل - كما هو معروف -، وكنت أنصح من ألقاه منهم بالعدول عن هذه الأقوال الشاذة والمواقف المتطرفة المتشنجة.

كان من بين الذين التقيت بهم قائد هذه المجموعة، وفي بداية جلستنا بادرني قائلاً: سمعت أنك لا تقول بردة هؤلاء الذين تحالفوا مع العلمانيين.

قلت: إنني أستنكر تحالفهم مع العلمانيين كما أستنكر الحكم عليهم بالردة.. وكان لابد من الدخول معه بنقاش طويل، وكان واضحاً عندي أنه لا يتكلم عن معرفة ودراية، غير أن انطباعي عنه في جلساتي معه أنه كان مهذباً ودوداً يحسن الاستماع.. وبينما كنت أفند شبهاتهم وأرد عليها، ذكرت أقوال بعض الأئمة في قتل تارك الصلاة حداً لا ردة، وأحسب أنه لأول مرة يسمع هذا الحكم، فضحك وقال:

سيدي: نقتلهم حداً!!، وهكذا فقد عادت نغمة التهديد بالقتل ومعه فتوى بالردة والمروق عن الدين، وعاجلت المواقف الحاسمة هذا الكيان الهزيل المتداعي فلا التحالف نجح ولا تنفيذ الحكم بقتل المرتد قد تم، وعلى نقيض ذلك فقد نجح الطاغوت في تحقيق أهدافه الإجرامية الخبيثة، وأعطيناه - بسوء أعمالنا ومواقفنا - المبرر لإجهاض تجربة إسلامية عمرها أكثر من نصف قرن.

وللإنصاف أقول: إن الشيوخ كانوا أول من استخدم الإرهاب الفكري والإعلامي في تعاملهم مع التلامذة - أعضاء المجموعة -، فعندما كان التلامذة يطرحون تساؤلات يرون أنها مهمة، ويبحثون عن أجوبة مقنعة تزيل الشكوك التي تراودهم، كانوا يقابلون بالإعراض والتهديد والتشكيك بالنوايا، مما أدى

=ولابد لنا ونحن ندعو إلى الإصلاح من مواجهة أخطائنا بصراحة، وليس في نيتي - علم الله - النيل من أي داعية أو من أية جماعة.

إلى زيادة الشكوك وتفاقم الخلافات، وأخيراً صدرت الأوامر بفصل من أسموهم بالمشاغبين الفوضويين، ومقاطعتهم، وإطلاق الإشاعات ضدهم.

استجاب أعضاء الجماعة لأوامر المقاطعة، وانصرف الكثير - وخاصة الأقران - إلى ترويج الإشاعات التي لا يصح معظمها، وأحس التلامذة بعزلة ما كانوا يتوقعونها، وفقدوا الثقة بقادة وشيوخ كانوا بالأمس يقدرونهم أشد التقدير، ويحبونهم أعظم الحب، ويفدونهم بالأنفس، والأموال، ويضعونهم في مراتب أصحاب رسول الله ﷺ .. وعندما تصل الأمور إلى هذا المستوى يتعذر العودة إلى أيام الصفاء، كما يتعذر استرداد الثقة مهما بُذل من جهود ومحاولات:

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاج كسرها لا يجبر

وزادت الأمور تعقيداً بعد صدور قرارين: قرار بحمل السلاح اتخذته المجموعة ضد السلطة التي قتلت شيخهم رحمه الله بطريقة دنيئة(١)، وقرار مناقض للقرار الأول اتخذته الجماعة، وكان صائباً سليماً - من وجهة نظري - لولا حملات التشنيع التي رافقته.. ولما رأى أصحاب هذا القرار أن شبابهم بدؤوا يتخلون عنهم، وينضمون إلى المجموعة التي نفذت عدداً من العمليات الناجحة التي أوقعت الرعب بالسلطة، اتخذوا قراراً بإعلان الجهاد ضد السلطة، وإذا كانت هذه المسألة هي سبب طردهم لإخوانهم وأبنائهم أعضاء المجموعة، فالقرار الجديد يعني وحدة الصف، وإعطاء القوس باريها، غير أن شيئاً من هذا لم يحدث، وقامت الجماعة بتنفيذ مجموعة من العمليات الفاشلة، ونشطت إعلامياً في هذا المضمار، ووجدوا في الخارج من يساعدهم ويشد عضدهم،

---

(١) انظر مساجد الضرار، كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟.

ويقدم المساعدات السخية لهم.

أما المجموعة فكانت تفتقد الإعلام الذي تبين من خلاله حقيقة ما يجري على أرض المعركة، وأكثر الناس في الخارج صدّقوا بأن الجماعة هي المسؤولة عن جميع العمليات التي تحدث، وآمنوا بأن الأموال يجب أن تدفع إليها وحدها، ومن المفيد ممارسة الضغط على شباب تمردوا على شيوخهم من أجل إرغامهم على العودة إلى الصف الذي ينبغي أن يتوحد المسلمون من خلاله.

وهذا من غير شك كله من أوله إلى آخره إرهاب واستبداد وقهر، فالشباب في ظل هذه الأجواء الخانقة المحمومة ما عادوا يفرقون بين السلطة الغاشمة، وبين إخوان الأمس، لاسيما وأن حجب الأموال حقق ما عجز عنه الطغاة الظالمون، فالعمليات توقفت، والجماعة لم تقم بواجبها، وليست قادرة على ذلك لو أرادت، والأمور تسير نحو الهاوية.

لو كان هذا المثال فريداً من نوعه في ساحة العمل الإسلامي لما أوليناه عنايتنا، لكنه تحول إلى سلسلة متصلة من الأحداث تتضخم مع مرور الزمن، فهي مثلاً في الثمانينيات والتسعينيات أضعاف ما كانت عليه في السبعينيات والستينيات، ومن جهة ثانية فالإرهاب الفظيع الذي يعاملنا به الطغاة يجب أن لا ينسينا مشكلاتنا وضرورة البحث عن حل لها.. والأمثلة الآتية تبين لنا حجم هذه القضية:

المثال الأول من تجربة النظام الخاص:

يقول كُتّاب جماعة الإخوان المسلمين الذين شاركوا في تحمل مسؤولية قيادة الجماعة في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات:

"أنشأ الشيخ حسن البنا رحمه الله جهازاً عسكرياً داخل الإخوان [النظام

الخاص]، من أجل مقاومة الاستعمار في مصر وفلسطين وبقية بلدان المسلمين التي تئن تحت وطأة الاستعمار".

ولم يبق هذا الجهاز كما أراد البنا، فبعض القائمين عليه استقلوا بقيادته واقتبسوا من الجيوش العسكرية مفهوم طاعة الجندي المطلقة لرئيسه، ومفهوم نفذ ثم اعترض.

وتحت شعار طاعة الجندي المطلقة صدرت الأوامر باغتيال النقراشي - رئيس الوزراء - واغتيال القاضي الخازندار، وكانت السلطة تحمّل حسن البنا مسؤولية هذه الجرائم التي كان يسمع بها كغيره من عامة الناس في مصر، وقال ذات مرة [في بيان نشرته الصحف] مشيراً إلى هؤلاء الذين يرتكبون هذه الأحداث: "ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين".

وأخيراً دبرت قوات أمن فاروق حادث اغتيال حسن البنا رحمه الله.

وجاء المرشد الثاني للإخوان المسلمين حسن الهضيبي، كان منذ بداية مسؤوليته غير مقتنع بهذا الجهاز، وتشاركه القيادة في هذه القناعة، واتفقوا أن يتم حله بالتدريج، فاختاروا (سيد فايز) ليكون مسؤولاً للنظام الخاص بدلاً من السندي، ولكن الأمور تطورت، فقد تم اغتيال سيد فايز، واتجهت أصابع الاتهام إلى السندي ومساعديه، مما دعا قيادة الإخوان إلى فصل السندي وأعوانه من النظام الخاص ومن الإخوان.

تحالف المفصولون من النظام الخاص مع الشيوخ المفصولين من قبل [محمد الغزالي وسيد سابق وغيرهما] ونظموا عملية انقلاب داخل الإخوان، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يفهمها العسكريون، فاحتلوا بالقوة المركز العام للإخوان المسلمين في القاهرة (عام ١٩٥٣)، كما احتلوا منزل الأستاذ حسن

الهضيبي من أجل إجباره على الاستقالة، ومنعوه من مغادرة الغرفة التي كان يجلس فيها في المنزل، غير أن هذه المؤامرة فشلت عندما جاءت قوات من الإخوان بعد يوم واحد، وأعادت السيطرة على المركز العام.

لقد مضى هذا الحدث الأليم، وأصبح تاريخاً يُكثر من سرده خصوم الدعوة الإسلامية بأسلوبهم الذي يفتقد الأمانة والموضوعية، ولكن هل استفاد الإسلاميون اليوم من النظام الخاص كأول تجربة عسكرية؟.. هل أدركوا أن النكرات يجب أن لا تناط بهم هذه المهام الخطيرة؟ والشيوخ الذين شاركوا في هذه الفتنة قد يكون معهم بعض الحق في خلافهم مع إخوانهم، ولكن أما وجدوا غير القوة سبيلاً إلى حل هذه الخلافات؟. قلة قليلة من الشيوخ وقيادة النظام الخاص كانت تنسق مع الحاكم المستبد جمال عبد الناصر، والبقية كانوا يتقربون إلى الله فيما اجتهدوه واقتنعوا به.

المثال الثاني من سورية:

ذكرت في موضع آخر قصة مجلس قيادة جماعة إسلامية اجتمع لإصدار قرار في مسألة اشتد فيها الخلاف[1]، وخلال الجلسة اشتبك رئيس الجلسة [نائب المسؤول] في نقاش مع أحد الأعضاء، وبعد ارتفاع صوتيهما وتبادل الاتهامات بينهما، سحب رئيس الجلسة مسدساً كان يخفيه بين ملابسه، وصوبه نحو أخيه يريد قتله، فهب الأعضاء مذعورين وأمسكوا بالمعتدي ومسدسه، وبعضهم حموا بأنفسهم الضحية الذي هرب إلى غرفة مجاورة، وكانت هذه

(١) ذكرت هذا المثال والمثال الذي قبله في بحث أسميته: (كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟) وقد نشر على شكل حلقات في مجلة السنة، وسوف يصدر إن شاء الله قريباً في كتاب تحت عنوان: (مساجد الضرار).

نتيجة الحوار بين الإخوة القادة، ولا أظن أن بعضهم رأى البعض الآخر منذ هذا اللقاء العاصف.

المثال الثالث من مصر:

شهدت فترة السبعينيات صوراً من الإرهاب بين بعض المجموعات الإسلامية في مصر، فجماعة التكفير كانت ترى ردة العضو الذي ينشق عنها، وترى أيضاً تصفية هؤلاء المرتدين، وكان الأعضاء المكلفون ينفذون أوامر القيادة، ويستخدمون السكاكين والمطاوي ضد الأعضاء المعنيين، وكانت الصحف المصرية تبالغ في تغطية هذه الأحداث وفي التعليق عليها، والجدير بالذكر أن هذه الاعتداءات شملت الدعاة والجماعات الأخرى مثل ما كان يسمى بجماعة الفنية العسكرية.

وآخر هذه الاعتداءات عملية اختطاف الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف السابق، وأحد كبار علماء الأزهر، ثم قتله بشكل وحشي، والشيخ رحمه الله لم يكن من بين الذين كانت لهم مواقف معادية لهذه الجماعة، ومن جهة أخرى فقد كانت الدولة أول وآخر المستفيدين من قتله، لأنه كان قد أصر - رغم التهديد والوعيد - على رفع دعوة ضد وكيل وزارة الأوقاف السابق بسبب اختلاس مساحة واسعة من أراضي الوقف، والوكيل كان عضواً في عصابة يقف على رأسها الرجل الأول في مصر - السادات - ، وتم قتله في الشهر السابع من سنة ١٩٧٧ بينما كان موعد نظر المحكمة في هذه القضية في الشهر العاشر من العام نفسه، فهل استدرجت قوات الأمن القتلة إلى تنفيذ هذه الجريمة بغية سقوط الدعوة تلقائياً؟[١].

---

(١) انظر كتابي (الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو): ١/ ٣٢٩.

المثال الرابع من أفغانستان:

من أهم أحداث عقد الثمانينيات الحرب التي خاض غمارها المسلمون الأفغان، والتي انتهت برحيل الغزاة، وسقوط النظام الشيوعي في كابل. لقد وقف المسلمون – على مختلف مذاهبهم واتجاهاتهم – مع إخوانهم الأفغان وقفة رجل واحد، وقدموا أعز ما يملكون في سبيل الله.. وكانوا يأملون أن يكون انتصارهم بداية لعودة الخلافة الإسلامية، وأن تكون أفغانستان نواة هذه الدولة العالمية الجديدة، وهذا الأمل جعلهم ينظرون إلى ما يجري على الساحة الأفغانية بعين الخيال والعاطفة، وليس بعين الحقيقة والواقع:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

منذ البداية لم يكن هناك أي مبرر لتعدد الأحزاب والجماعات الإسلامية التي تشكل معظمها بعد بداية هذه الحرب، والتي أخذت شكلاً قومياً عرقياً يتدثر بالشعارات الإسلامية التي أصبحت لغة هذه الحرب.

ومنذ البداية أيضاً كانت هذه القبائل تقاتل الشيوعيين الغزاة، وتتقاتل فيما بينها في وقت واحد، وكان العالم أجمع ينقل أخبار المعارك الدامية بين هذه القبائل الإسلامية، وكان رد أنصار الجهاد الأفغاني: هذه الأخبار غير صحيحة أو مبالغ فيها وغير ذلك.. وعندما أصبحت هذه القضية مشهورة وواضحة المعالم، تدخل الوسطاء من جميع بلدان العالم، وذكّروا الأطراف بكل ما يجب أن يقال عن حرمة قتل المسلم لأخيه المسلم، واستخدموا جميع وسائل الترهيب والترغيب، ومع ذلك فقد استمر القتال، لأن القتال أصبح عملاً يومياً عادياً عند الأفغان لا يستطيعون الحياة بدونه، ويصدق فيهم قول الشاعر الجاهلي:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وبعد مضي خمسة عشر عاماً لم يظهر أي بصيص أمل يبشر بوقف هذا النزيف، فبعد سقوط كابل أصبحت الحرب قاصرة على الفصائل الإسلامية فيما بينها، وكل فصيل يتحالف مع جهة أخرى: كالشيوعيين السابقين، والإسماعيليين، والرافضة، والدول الأجنبية. فقد حصدت هذه الحرب الغاشمة عشرات الآلاف من القتلى، ومثل هذا العدد أو يزيد من الجرحى والمعوقين، ولم يرعوا حرمة للمساجد، فهدموا أشهرها، كما هدموا أهم المعالم التاريخية لمدينة كابل، وتساءل الناس بمرارة: كيف تسلم المساجد ومعالم كابل الإسلامية ولا يعتدى عليها خلال الحكم الشيوعي، وتلقى ما تلقاه من هدم خلال حكم يسمى نفسه إسلامياً؟!.

لقد أصبحنا أضحوكة أمام أعدائنا الذين يقولون بخبث: أهذا هو الحكم الإسلامي الذي تنادون به؟ أما الشعب الأفغاني، فبات يتمنى أي حكم يحقق له الأمن والاستقرار.. ورغم كل ما حدث لا يزال بيننا من يدافع عن الفصائل الأفغانية، ويشبه حربهم بحرب علي بن أبي طالب مع معاوية رضي الله عنهما.

المثال الخامس من الجزائر:

بينما كان المسلمون – في بداية التسعينيات – يتطلعون باستنكار إلى صنيع الفصائل الإسلامية الأفغانية، ويأملون أن يثوب هؤلاء الناس إلى رشدهم.. في هذا الوقت بالذات بدأت تظهر بذور فتنة أخرى في الجزائر، وكما يحدث عادة: فقد وقع انقلاب عسكري نفذته طغمة دموية مرتدة من الجنرالات الذين رباهم الفرنسيون خلال عهدهم الاستعماري، وكان هذا الانقلاب يستهدف الجبهة الإسلامية للإنقاذ ومشروعها الإسلامي الذي أيدته غالبية الأمة.

انطلق الشباب الجزائري يبحث عن وسيلة لمواجهة هؤلاء المعتدين باللغة التي يستخدمونها ويفهمونها، فبعضهم كون مجموعات تقاتل هنا وهناك دون

أن يكون لها ارتباط بأحد، وبعضهم انضم إلى ما يسمى (بالأفغان الجزائريين).

هيأ انقلاب العسكريين أجواء مناسبة للمجموعة الأخيرة لنشر غلوها وشذوذاتها، ومن ذلك أنهم يرون رأياً لا دليل عليه عند أهل السنة، ثم يفتون بردة من يخالفهم فيما ذهبوا إليه، وينفذون فيه حكم المرتد إن استطاعوا.

لقد قتلوا أحد المسؤولين في جماعة إسلامية تخالفهم وتنقد أعمالهم، والقتيل – رحمه الله – من الذين يشهد الناس لهم بالخير والاستقامة، وقتلوا مسؤولين في وزارة الشؤون الدينية، مع أنهم ليسوا من الذين يملكون حق إصدار القرارات في هذه الوزارة، وقتلوا نفراً من أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وأصدروا (فرمانات) يهددون فيها كل من يتحدث باسم الجهاد والمجاهدين، مع أن هذا المتحدث يعني جهة معروفة غير جهتهم لها وجود حقيقي في ساحة الجهاد، لكنهم يرون أن الجهاد لهم وحدهم، والناس توحدوا تحت رايتهم، وفي (فرمان) آخر يهددون اللجنة التنفيذية لقيادة الجبهة في الخارج، وأخيراً فإن أنصارهم يتحدثون عن ردة شيوخ جبهة الإنقاذ..

فماذا يريد أعداء الإسلام غير هذا؟!.

حكم القتل عمداً

من أعظم الكبائر عند الله سبحانه وتعالى أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن بغير حق، وقد وردت هذه الكبيرة مقرونة بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ويقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ ﴾، إلى أن قال: ﴿وَلا

تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ، ٦٩].

وتوعد الحق جل وعلا القاتل، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقال: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

(أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء)

وقال ﷺ: (لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم)[(١)].

وعن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: (أقال لا إله إلا الله وقتلته؟) قال: قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟) فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذٍ، قال: فقال سعد [بن أبي وقاص] وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله ذو البطين يعني أسامة. قال: قال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة وأنت وأصحابك تريدون أن

(١) رواه الترمذي، والنسائي، وانظر تخريج الشيخ أحمد محمد شاكر له في عمدة التفسير: ٣/ ٢٣٩.

تقاتلوا حتى تكون فتنة.

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال لأسامة:(فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟)[(١)].

وفي قصة مماثلة رواها البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لخالد ابن الوليد: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد).

وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[(٢)].

قال ابن كثير:

"إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام ونائبه".

"وكان ابن عباس يرى أن لا توبة للقاتل عمداً المؤمن: روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء ... وممن ذهب إلى أنه لا توبة له [أي القاتل] من السلف: أبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك ... غير أن الذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع،

(١) صحيح مسلم، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله.

(٢) أخرجه الشيخان.

وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات"[١].

فليتدبر الشباب [وجميع الذين وقعوا في شباك هؤلاء الغلاة من الشباب] هذه النصوص المحكمة القطعية، وليحذروا من زخرف القول، ومن أباطيل الخوارج الجدد التي يسمونها فتاوى وليست من الفتاوى في شيء، فللفتاوى رجالها المعروفون بأسمائهم الصريحة وبتاريخهم العلمي الناصع وشهادة الأمة لهم، وليسارع من عمر الإيمان قلبه بالتوبة النصوح قبل أن يخسر الدنيا والآخرة.

* * *

(١) عمدة التفسير للحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر: ٣/ ٢٣٥، ومن شاء التوسع فليراجع أدلة الجمهور من سلف الأمة على توبة القاتل عمداً في هذا الكتاب وفي غيره من كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

الفصل الثاني

الإرهاب الفكري

الإرهاب الفكري

الإرهاب الفكري: هو كل إرهاب لا يصل إلى حد القتل الجسدي، غير أنه أفدح منه خطراً، وأشد ضرراً، فكم إنسان قتله إخوانه اجتماعياً يتمنى الموت على الحياة؟، وكم قتيل نفسي يتمنى أهله وأصدقاؤه موته؟، ونقول يتمنى أهله وأصدقاؤه لأن هذا الضحية لم يعد عنده فارق كبير بين الموت والحياة.

لا أظن أن أحداً منّا لا يشعر بهذا الخطر الذي يهدده ويلاحقه في حله وترحاله، فما من جلسة تجمع أشتاتاً من الإخوة إلا ويشعر بعض المشاركين فيها بهذا الإحراج، فهم يريدون أن يفصحوا عن رأي يرونه، لكنهم يتراجعون، ويغيرون مجرى الحديث، أو يلوذون بالصمت خوفاً من غضب الآخرين ونقمتهم، مع أن الذي كانوا سيقولونه ليس فيه مخالفة للشرع أو للعقل أو العرف الصحيح.

قلة قليلة من الناس لا تخشى العواصف الهوجاء، ولا يزيدها هجوم المبطلين وظلمهم إلا عطاءً وإبداعاً، لقد شغلتهم طاعة الله عن الالتفات إلى الشائعات، وبيان ما فيها من تلفيق وافتراءات، ومن لطف الله بهذه الأمة، وجود هذا الصنف من الرجال في جميع الأعصار والأمصار، وهم المعنيون بالحديث الآتي:

عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين

على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[١].

ومن أفدح المصائب أن يتخذ عامة الناس من الجهلة والغوغاء موقفاً من المواقف في ظروف عاطفية تمر بها الأمة، وخلال بضع ساعات يتحول هذا الموقف إلى تيار جارف، ومن يخالفه يتهم بالمروق والخيانة، ويصبح منبوذاً حتى بين أهله وأصدقائه وأهل الحي الذي يقطنه، وكم سمعنا ورأينا علماء كبار ومفكرين مشهورين يشيدون بهذا الموقف العام في ندواتهم وفيما يكتبون من أبحاث ومقالات مع أنهم في قرارة أنفسهم يعتقدون بطلانه وتفاهته، ويقولون في خلواتهم لصفوة الأصدقاء: لقد حملنا الإرهاب على قول ما لا نعتقد.!!

وسوف ندلل على خطورة الإرهاب الفكري من خلال عرض الأمثلة الآتية:

الأول: منذ بداية الجهاد الأفغاني[٢] ونحن نسمع أخبار المعارك بين معظم الفصائل المجاهدة، ففي عدوان واحد كان عدد الضحايا مئات من الركع السجود يذبّحون في صلاة الجمعة أو العيدين[٣] كما تذبح الخراف، وكان القاتل والمقتول من المنتمين إلى فصائل إسلامية مجاهدة، ومن الجدير بالذكر أنه من المستحيل كتمان مثل هذه الأخبار لأن وكالات الأنباء العالمية منتشرة في ساحات المعارك، ولهذا فقد كانت تنقل هذه الأخبار المأساوية بالأرقام، وتسمي الفصائل المتقاتلة، وأسماء القادة، والمشهورين من الضحايا.

نحن وحدنا كان إخواننا يريدون منا أن نتحدث عن كرامات الأفغان

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، ومسلم في كتاب الإمارة بألفاظ مختلفة، وهذا اللفظ لمسلم.

(٢) انظر ص ٧٣.

(٣) تكررت هذه الاعتداءات في صلاة الجمع والأعياد.

وانتصاراتـهم، دون أية إشارة إلى بقية الأخبار، ومن يكتب محذراً ناصحاً يصبح هدفاً لحملة من التشويه والتشهير، فتارة يقولون: إنه يردد أكاذيب أجهزة إعلام الدول الكافرة، وكان من الواجب عليه الاكتفاء بسماع أقوال إخوانه المـرابطين في الثغور.

وتارة أخرى يقولون: إنه عدو للجهاد، ويشيع مقالة السوء عن مجاهـدين أبرار لا يستحق أن يكون ذرة مـن الغبـار المتراكـم علـى ملابـسهم، بـل علـى أحذيتهم.

إن هؤلاء الذين كانوا يمارسون الإرهاب الفكري ضد إخوانـهم ينطلقون من اجتهاد مفاده أن إشاعة هذه الأخبار التي لا ينكرون صحتها ينفّـر المـسلمين من الجهاد الأفغاني.

والآخرون يقولون: نحن لا نتـولى إشـاعة هـذه الأخبـار، لأنــها مـشاعة بالتواتر، ولا نريد أن نكذب عندما يسألنا سائل عن رأينا وموقفنـا، ومـن جهـة أخرى فإننا نـرى أن تأخـذ هـذه القـضية حجمهـا الـصحيح، ويتخـذ العلمـاء والدعاة موقفاً قوياً من الذين لا يتقون الله في دماء إخوانـهم.

وسـواء صـح هـذا الاجتهـاد أو ذاك، فلمـاذا يـشكك الـبعض بالنوايـا، ويخوضـون في أعـراض إخوانــهم، بـل لمـاذا يـدافعون بالباطـل عـن القتلـة، ويستخدمون سلاح الإرهاب ضد مجتهدين يرون أن اجتهادهم مـدعوم بالأدلـة الشرعية؟!.

الثاني: أيد معظم الإسلاميين في حرب الخليج الثانية زعيم حزب البعث، رغم اطلاعهم التام على مبادئ حزبه العلمـاني المعـادي للإسـلام والمـسلمين، ورغم إحاطتهم الشاملة بأهم الجرائم الـتي ارتكبهـا ضـد المـسلمين في العـراق

عامة، وضد إخوان لهم بخاصة.

قال المؤيدون: يغفر الله لـه ماضـيه بعـد أن تـاب وعـاد إلى كنـف ربـه.. وأضافوا: إن احتلال الكويت خطوة أولى في طريق استرداد فلسطين، وتوحيـد الأمة العربية، وقهر إرادة أمريكا وربيبتها إسرائيل، ولن تـستعيد أمتنـا مكانتهـا إلا إذا قادها رجل قوي.

فئة أخرى من الإسلاميين أيدت الاستعانة بـالقوات الأمريكيـة، وأفتـت بشرعية دخول هذه القوات وإقامتها في جزيرة العرب التي لا يجتمع فيها دينان، وتذكرت هذه الفئة أن حاكم بغداد كافر مرتد، وما كنا نسمع مثل هذا الكـلام رغم الحاجة إليه.

لست في صدد ترجيح موقف علـى آخـر، ولكـنني في صـدد الإشـارة إلى بشاعة الاتـهامات التي تبادلها الطرفـان، ولا يـزال هـذا الموقـف يلقـي بظلالـه القاتمة المؤلمة، وجدير بالذكر أنه لم يسلم من هـذا الإرهـاب الفكـري فئـة ثالثـة استنكرت احتلال الكويت، كما استنكرت الاستعانة بالقوات الأمريكية.

الثالث: أمهد لهذا المثال بما يلي:

- كلنا مؤمنون بأن المـؤتمرات والمفاوضـات الـسياسية ليـست أكثـر مـن شكل من أشكال استسلام الظالمين [الذين سـلطهم الله علـى رقابنـا] للعـدو الصهيوني.

- وكلنا مؤمنون بوعد الله لنـا بالنـصر علـى اليهـود، والطريـق الوحيـد لإنجاز هذا الوعد هو الجهاد في سبيل الله، والجهاد يحتاج إلى إعداد.

بعد هذا التمهيد الذي لابد منه بسبب حساسية الموضوع أقول:

كان بعضنا يعتقد أن قيادة منظمة التحرير هي المستفيد الوحيد من الانتفاضة، لأنها أفلست وفقدت جميع الأوراق التي تمكنها من المناورة، وكان هذا البعض يتوقع منذ بداية الانتفاضة أن تقبل المنظمة ببعض الفتات، ثم تتعاون مع اليهود ضد الإسلاميين الذين كان لهم دور لا ينكر في الانتفاضة.

كان هذا البعض لا يقلل من بطولة وشجاعة الذين يقاومون قوات الاحتلال بالحجارة، فلا يخيفهم بطش العدو ولا ترهبهم سجونه، لكنه كان يتساءل في جلسات مغلقة: وماذا بعد؟ وكيف يردد الناس في الضفة الغربية وغزة قول الشاعر:

في القدس قد نطق الحجر لا مؤتمر، لا مؤتمر؟

ألا يدري هؤلاء المنشدون بُعدَ الهوة الساحقة التي تفصل الواقع المؤلم عن بلاغة الشاعر وعواطفه؟.

قلت: كانت هذه التساؤلات تردد في جلسات مغلقة، لأن من يبوح بها علناً سيتعرض لاتهامات كثيرة، أقلها: عداوة الانتفاضة، وأشدها: العمالة للصهيونية.

وبعد أن ركبت المنظمة موجة الانتفاضة، وقبلت الفتات، وقام لها كيان مزيف سموه: الحكم الذاتي، وبدأ قادة هذا الكيان يتعاونون مع اليهود وأشباه اليهود ضد الإسلاميين. . فقد عاد هذا البعض ليطالب إخوانه في فلسطين المحتلة بضرورة تقويم الفترة الماضية من مسيرتهم، والاستفادة من آراء أهل الخبرة والمعرفة، ومعالجة تعدد الآراء واختلاف المواقف علاجاً صحيحاً والحذر من تسرع المتسرعين، وميوعة بعض السياسيين الذين يبحثون عن أنصاف الحلول وأرباعها. . ثم الاتفاق بعد ذلك كله على خطة جديدة تأخذ في

حسبانـها كيد اليهود وخبثهم، ودناءة المستسلمين لليهود.. فهل يجد هذا القـول آذاناً صاغية؟ وهل يُفَوتُ إخواننا الفرصة على كل من يراهن على شق الصف الإسلامي، وضربه من الداخل؟ نرجو ذلك.

قال أحد الإخوة الذين قرأوا هذه الأسطر قبل نشرها: لقد ترك الإرهاب بصماته على ما كتبته، ولهذا جاء اختصارك لهذا المقال مخلاً.

الرابع: عجبت أشد العجب من الذين يدافعون عن العلمـانيين المـارقين، ويتعاملون معهم برحابة صدر، رغم تحـديهم لعقائـد المـسلمين، ووقـاحتهم في إبداء آراء لا خلاف بين المسلمين على كفر وردة من يعتقدها.

هؤلاء الذين يدافعون عن العلمانيين هم أنفسهم الذين تضيق صدورهم، وينفرون من إخوانـهم الذين يختلفون معهم في الاجتهادات، وقـد تحمـل هـذه الاجتهادات شيئاً من الـشذوذ.. فـإذا أراد المخـالف الـزواج نـشطوا في إقنـاع الناس بعدم تزويجه، وإذا تقدم إلى مؤسسة من أجل الحصول على وظيفة فيهـا، سعوا عند المسؤولين لحرمانه منها، وقد يكررون المحاولة في مؤسسة ثانيـة.. وفي الحي الذي يسكنه يحرمونه حتى من حقوق المسلم علـى المـسلم، فـلا يـسلمون عليه إذا رأوه، ولا يعودونه إذا مرض.

مرة أخرى أقول:

لا أدري كيف اتسعت قلوب هـؤلاء الإخـوة للعلمـانيين، وللنـصارى، وضاقت بإخوانـهم؟ ولا أدري أيضاً كيف يكيلون بمكيالين، ففي تبرير موقفهم من العلمانيين يقولون: دعه يستخدم حريتـه في التعـبير عـن رأيـه، ولا تمـارس عليـه أي نـوع مـن أنـواع الإرهـاب، ثـم قارعـه الحجـة بالحجـة في جـو (ديموقراطي).. فلماذا حرموا إخوانـهم من هذه المعاملة الحسنة؟.

الخامس: علماء الأمة الثقات في جميع مراحل تاريخنا الإسلامي كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويواجهون الظالمين بظلمهم والمبتدعين ببدعهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، ونحن جميعاً نعتز بهم، ونتخذهم أسوة حسنة لنا.

إلا أن ناساً من المنسوبين إلى الدعوة، ومن المعجبين بشجاعة أحمد بن حنبل، وبموقفه التاريخي المعروف من المأمون والمعتصم والواثق، ومن بدعة أهل الاعتزال.. هؤلاء الناس يهاجمون إخواناً لهم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وفق ضوابط أهل السنة، ويستخدمون في هجومهم ألفاظاً نابية، وتهماً شتى لا يستطيعون إقامة أدلة عليها، ومما ابتكروه من أوصاف ألصقوها بإخوانهم: "**دعاة التهييج**"، فهذا من دعاة التهييج، وذاك لا علاقة له بدعاة التهييج، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الاصطلاحات التي أصبحت عندهم وكأنها من علم الجرح والتعديل، وإذا لم يؤد هذا المصطلح دوره المطلوب رموا المخالف بالابتداع وفساد الاعتقاد أو بالزندقة والإلحاد.

السادس: وهناك طائفة ترفع شعار الدفاع عن الدعاة والعلماء، وتحذّر من الذين ينهشون لحومهم لأنها مسمومة، ومما لا ريب فيه أن العلماء والدعاة العاملين هم صفوة الأمة ولا يجوز النيل من هذه الصفوة وتحقيرها، غير أن الذين يرفعون هذا الشعار هم الذين يهاجمون الدعاة والعلماء ثم يزعمون أنهم بصنيعهم هذا يحذرون من الذين يطعنون الأمة في أفضل رجالها وقادتها، ومن جهة أخرى فالعلماء عند هؤلاء الناس قاصرون على قادة أحزابهم، وهذا يعني أن المسألة عندهم لا تعدو أن تكون صراعاً حزبياً أو مذهبياً،

وقصارى القول، فإن الشعار خلاف المضمون[1].

❋ ❋ ❋

لعلنا بهذه الأمثلة التي اخترناها نكون قد قدمنا صورة كافية عن الإرهاب الفكري داخل الصف الإسلامي، وبينا حجم المخاطر الناجمة عنه.

❋ ❋ ❋

(١) من شاء مزيداً من التفصيل لمضمون المثالين الخامس والسادس فليراجع كتابي: العلماء وأمانة الكلمة.

الفصل الثالث

الدوافع والأسباب

الدوافع والأسباب

نحن ننتسب إلى أمة كانت في جاهليتها تتغنى بقول شاعرها:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

فلابد في المجتمع الجاهلي من السلاح، لأن الحاجة إليه كالحاجة إلى الطعام والشراب، ولابد أيضاً من الحروب حتى لا يكون الفرد مظلوماً ومستعبداً، ولهذا فقد كانت الحرب تنشب بين قبيلة وأخرى لأتفه الأسباب، وكان أفراد القبيلة ملزمين بخوض غمار أي حرب تكون قبيلتهم طرفاً فيها: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).

تغيرت الأحوال والأعراف والعادات عندما أنعم الله جل وعلا على البشرية برسالة الإسلام، وتوحدت القبائل تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولم يعد أحد قادراً على ظلم أحد وإرهابه، وأصبح الناس سواسية كأسنان المشط.

ولكن بعض العادات الجاهلية بدأت رويداً رويداً تأخذ طريقها إلى نفوس الحكام بعد عصر الخلفاء الراشدين، ففي سنة إحدى وستين من الهجرة قتل المجرمون الظالمون ابن بنت رسول الله [الحسين] - رضي الله عنه -، وفي سنة ثلاث وسبعين قتل الحجاج بن يوسف الثقفي قبحه الله وأخزاه[١] الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير، وقتل معه عدداً من الصحابة والتابعين،

(١) هذه عبارة ابن كثير في تاريخه عندما تحدث عن الحجاج ومقتل عبد الله بن الزبير.

واعتدى على حرمة بيت الله الحرام فرمى الكعبة بالمنجنيق، وفي سنة خمس وسبعين دخل الكوفة، فبطش بأهلها، وكان آخر من قتل التابعي سعيد بن جبير رحمه الله.

وتطاول العهد على سياسة استخدام الحكام الظالمين لوسائل القهر والإرهاب حتى صرنا نسمع من أفواه شيوخ السلاطين حقوقاً مزعومة لذيل بغلة السلطان، وكفى بذلك ذلاً وهواناً.

وهكذا فقد خضع الناس في بلادنا سنين طويلة لأنظمة طاغية مستبدة: تكبت أفكارهم، وتصادر حرياتهم، وتقتل روح الإبداع في نفوسهم، فالفرد في ظل هذا الإرهاب يقول ما يرضي الطغاة الجدد، ويعمل كل ما يدنيه منهم أو من بطانتهم، ومن أراد الصدع بالحق وإنكار المنكر، فلابد أن يكون مستعداً لدفع الثمن[(١)].

انتقلت هذه العدوى إلى الساحة الإسلامية، وقديماً قيل: (الإنسان ابن بيئته)، فعندما يضعف الإنسان وتخبو جذوة الإيمان في قلبه يتأثر بالأجواء المحيطة به، ويقلد الأقوياء المتنفذين، وعلى نقيض ذلك، الإنسان إن كان عالماً عاملاً، فإنه يؤثّر فيمن حوله ويصبغهم بأفكاره التي يدعو لها.. وقد ذكرنا في الحلقة الماضية من الشواهد الدالة على وجود الإرهاب بكافة أشكاله داخل الصف الإسلامي ما يغني عن أية زيادة.

إن الذين عايشوا مسيرة العمل الإسلامي يدركون مدى تأثر معظم الإخوة بطبائع الناس في بلدانهم، ومن الأمثلة على ذلك:

١ – للأحزاب السياسية غير الإسلامية طريقة معينة في انتخاب قادتها

---

(١) في تاريخنا أمثلة على القهر والإرهاب، وأمثلة أكثر على المساواة والتسامح والعدل.

وممثليها، وفي ترتيب المكائد وتصفية الخصوم عن طريق التحالفات والمحاور والانقلابات، ومن المؤسف أن كثيراً من الإسلاميين قد تأثروا بهذه الطريقة.

٢ – يرى السياسيون في بلد معين أنهم أكثر كفاءة من أمثالهم في بقية البلدان العربية، وغيرهم يجب أن يكون تابعاً لهم، راضياً بقيادتهم، ويحمل الإسلاميون في هذا البلد مثل هذه العقلية.

٣ – أكثر البلدان استبداداً وطغياناً وتنكيلاً ظهرت فيها حركات إسلامية لا تجيد الحديث إلا بلغة الحديد والنار، ولو قُدِرَ لها استلام الحكم لارتكبت من الجرائم أضعاف ما ارتكبه الطغاة الذين سبقوهم، وسوف ينفذون بأغلب العلماء والدعاة حكم الردة.

٤ – في عالمنا العربي مشكلة اسمها مؤسسة الرجل الواحد الذي يقبض الأمور بيد من حديد، ومؤسسة الرجل الواحد ترتدي أحياناً لباس الديموقراطية، وباسم هذه الديموقراطية المنكوبة يحكم الرجل الواحد، وكذلك حال الإسلاميين.

أجاد الأستاذ سيد قطب عندما تحدث عن التغيير الجذري الشامل الذي أحدثه الإسلام في حياة وعادات وطبائع المجتمع العربي في الجزيرة العربية، قال رحمه الله:

"لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام! وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام

الجديد، فإذا غلبته نفسه مرة، وإذا اجتذبته عاداته مرة، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة. . شعر في الحال بالإثم والخطيئة، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهدي القرآني"(١).

ولينظر من شاء في قصة الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول مع أبيه الذي كان رمزاً من رموز النفاق، فقد وقف الابن ضد أبيه في غزوة بني المصطلق وفي غيرها، وكان في الجاهلية من أبر الناس به.. ولينظر من شاء أيضاً إلى قصة الصحابي الطفيل بن عمرو الدوسي مع قومه، وغير ذلك كثير، وكان رسول الله ﷺ إذا عيّر صحابي أخاه بأمه أو بنسبه قال له: (إنك امرؤ فيك جاهلية)(٢)، وإذا ذُكر له أمر من الأمور المستقبحة قال: "هذا من عمل الجاهلية"، وقد جمع الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله المسائل التي خالف رسول الله ﷺ فيها ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأميين في رسالة، فكان تعدادها مائة وعشرين مسألة(٣)، وفي جميع الحالات كان المخطئ يسارع إلى التوبة والاستغفار، فلا يجادل ولا يعاند أو يستكبر.

روى ابن جرير عن أنس بن مالك قال:

"بينما أنا أُدِيرُ الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل ولا

(١) معالم في الطريق: جيل قرآني فريد.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الأول – العقيدة والآراء الإسلامية، ص: ٣٣٣.

خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

فقال رجل: يا رسول الله، فما ترى فيمن مات وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية، وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، أو حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب ولا ندري ما الكذب"[1].

والشاهد في هذا الحديث:

١ – مسارعة الصحابة إلى الامتثال لأمر الله ورسوله مع أن الخمر من العادات التي يصعب أن يتخلى عنها من ابتلي بها ناهيك عن عمق تأثيرها في المجتمع الجاهلي.

٢ – قول أنس بن مالك: ما كنا نكذب ولا ندري ما الكذب، وجيل هذه صفاته لا يمكن أن يقدم قول طائفة أو أهل بلد على قول الله ورسوله، وكل جيل يتأسى بالرعيل الأول لابد أن يأنف من الإرهاب والاستبداد والإجرام لاسيما إذا كان المستهدفون إخواناً له يختلف معهم في الآراء والمواقف.

* * *

(١) الطبري: ١٢٥٢٧، وإسناده صحيح، وقد ذكره الهيثمي في الزوائد: ٥/ ٥٢ وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات. ولهذا الحديث شاهد في الصحيحين. [عن: عمدة التفسير للحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق: أحمد محمد شاكر].

الباب الثالث

أزمة أخلاق

ويشمل الفصول التالية:

الفصل الأول: المستعمرون والمستغربون وضعوا أساس هذه الأزمة.

الفصل الثاني: آثار الأزمة.

الفصل الثالث: صور من أخلاق رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

الفصل الرابع: مكانة الأخلاق في بيان جعفر.

الفصل الخامس: تزكية النفوس.

الفصل الأول

المستعمرون والمستغربون
وضعوا أساس هذه الأزمة

- إنها أزمة
- المستعمرون وضعوا أساس هذه الأزمة
- المستغربون على خطا أساتذتهم
- علمانيون أكثر من العلمانية

إنها أزمة[١]

ليس من شيء في عالمنا المعاصر أكثرُ من الأزمات التي لا يخلو منها بلد من البلدان، أو مدينة من المدن، وأكاد أقول: لا تخلو منها معظم بيوت المسلمين.

فكثيراً ما نسمع أن هناك أزمة في الحكم في هذا البلد أو ذاك، ويعود نشوءُ هذه الأزمة لأسباب مختلفة:

منها: حدوث اختلاف قوي بين الحزبين اللذين يتقاسمان السلطة - وما أكثر هذا النوع من الخلافات - ، ويفتقد كلٌّ من هذين الحزبين الأكثرية في المجلس التشريعي - البرلمان - التي تمكنه من الانفراد في الحكم.

ومنها: أن يصل العسكريون إلى الحكم إثر انقلاب عسكري يحوكون خيوطه في الظلام، ثم يذعن الناس لسياسة الأمر الواقع، وينتظرون استقرار الحكم الجديد، وتنفيذ قادته للوعود المعسولة التي وعدوا الأمة بها بعد نجاح انقلابهم على النظام المهترىء العميل الذي أطاحوا به (على حد زعمهم)، ولكن الناس يفاجؤون بانقلاب جديد على هذا الانقلاب، قد يكون صامتاً، وقد ينقسم الجيش إلى أجنحة تتقاتل فيما بينها، وربما تجاوزت شظايا ونيرانُ هذه المعارك الثكنات العسكرية لتصل إلى الآمنين من المدنيين في المنازل والأسواق والشوارع العامة.

---

(١) في صياغة مطلع هذه المحاضرة استفدت من كتاب "إلى الإسلام من جديد" للشيخ أبي الحسن الندوي ص: ٩٥.

وقصارى القول: إن الأسباب تتعدد بتعدد الأزمات التي لا نهاية لها، ولابد أن ينعكس أثر هذه الأزمات على شؤون الإدارة والحكم، فيتغيب كبار المسؤولين عن مكاتبهم في الوزارات والمؤسسات العامة، وتتعطل مصالح العباد، ويستولي الهلع والقلق على نفوس الناس، وتكثر الأسئلة والهمسات عما ستنجلي عنه هذه الأزمة.. ومن المنتصر.. وما هي السياسة التي سيتبعها.. وهل في انتصار هذه الجهة أو تلك أمل في بتر دابر الفساد والمفسدين؟!.

غير أن المواطنين يصابون بخيبة أمل عندما يستقر الوضع لصالح جهة من الجهات المتصارعة، لأن الفساد على مختلف أشكاله يستمر، والقهر والاستبداد يزداد سوءاً، والأمل من التغيير يتبدد، وتترسخ قناعة أهل الخير والصلاح بأن هذا وذاك سواء لأنهم شركاء في الحكم والفكر، وما بينهم من خلافات لا تعدو المصالح الشخصية.. وأن كل من حادّ الله ورسوله واتبع سبيل الشيطان لا خير فيه، ولو رفع راية العدل والإنصاف.

وتطرق مسامعنا بين الحين والآخر أخبار الأزمات الاقتصادية المتتالية، لاسيما ونحن نعيش في عصر هيمن فيه طاغوت ظالم اسمه "صندوق النقد الدولي"، فعندما يضغط هذا الصندوق الربوي على بلد من بلدان العالم تأخر في وفاء الالتزامات المطلوبة منه، ويأمره برفع الدعم عن بعض المواد الغذائية الضرورية، لابد أن يستجيب البلد للأمر المطلوب منه، ولو حاول أن يتهرب منه بعض الوقت، والاستجابة هذه يتحمل وزرها الفقراء الذين كان دخلهم يكاد لا يسد حاجاتهم الضرورية قبل رفع الأسعار، فكيف يكون حالهم بعدها؟!.

ولما كان هؤلاء الفقراء يمثلون الغالبية العظمى من أبناء هذا البلد، فإنهم

لا يجدون وسيلة يعبرون فيها عن مشاعرهم عندما يقترب منهم شبح المجاعة إلا الخروج إلى الشوارع العامة متظاهرين مستنكرين، وقد تتحول المظاهرات إلى قتال دموي عندما تأمر السلطة رجال أمنها وقوات جيشها بقمع هذا الشعب(!!).. ولابد أن تكون الغلبة لقوات النظام المدربة على مثل هذه الأعمال، لاسيما وأنها مزودة بالأوامر التي تسمح لها بقتل وجرح وأسر كل من لا يفر هارباً من أمامها.

يتفرق المتظاهرون، وكل منهم له شأن، فمنهم من يقتل وينشغل أهله بأمور دفنه، ومنهم من تعج بهم المستشفيات ليعالجوا من الإصابات التي تعرضوا لها، ومنهم من يكون مصيره السجن ويوجه إليه ما يشاء المحقق من التهم، **والبقية الباقية يعودون إلى منازلهم التي خرجوا منها يشكون أزمة اسمها "الخبز" ورجعوا إليها بأزمة أخرى اسمها القهر والاستعباد والإذلال.**

وهناك أزمات بين السلطة والنقابات المهنية لا ينقطع الحديث عنها، فقد تطالب نقابة من النقابات برفع أجور العمال المنتسبين إليها ليكون دخلهم متناسباً مع ارتفاع الأسعار. وقد ترفض السلطة هذا الطلب لأن الميزانية لا تتحمل مثل هذه الزيادة، فلا تجد النقابة بداً من الإضراب الذي قد يؤدي إلى توقف إنتاج الشركات والمصانع، أو إلى تعطيل حركة السير وامتلاء الشوارع بالقمامة وبالروائح الكريهة التي تنبعث منها.. ثم تبدأ المفاوضات من جديد بين السلطة والنقابة للبحث عن مخرج من هذه الأزمة.

أجل.. إن الأزمات التي يهتم بها الناس - كل الناس - كثيرة ومتنوعة، لكن أزمة واحدة لا تجد نصيبها من العناية والاهتمام والدراسة مع أنها أزمة الأزمات، ومشكلة المشاكل، وعنوان رقي الأمم أو هلاكها واندحارها أمام

أعدائها.. إنـها أزمة الأخلاق!!، وما من أزمة أخرى إلا ولها بـها صلة، فالسلطة الملتزمة بالعدل وقواعد الأخلاق تجوع إذا جاع الناس، وتشبع إذا شبعوا، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم:

إن جاع في شدة قوم شَرِكْتَهُمُ   في الجوع أو تنجلي عنها غواشيها

جـوع الخليفة والدنيا بقبضته   في الزهد منـزلة سبحان موليها

إنني أفهم لماذا يثور الناس ويقاتلون من أجل خبز يـومهم، لكـني لا أفهـم لماذا لا يثورون ويقـاتلون مـن أجـل ديـنهم الـذي يعتـدى عليـه، ومـن أجـل أخلاقهم التي تنتهك وأعراضهم التي تـهتك.. فهل الطعام والشراب أهـم عنـد الناس من الدين والأخلاق؟!.

وأفهم كذلك لماذا يعرف الخاصـة والعامـة، والـصغير والكـبير مـن غـير استثناء أن هناك أزمة اسمها: إضراب عمال التنظيفات من أجل زيادة أجورهم، لكنني لا أفهم لماذا لا يعرف هؤلاء جميعاً بأن هناك أزمـة اسمهـا أزمـة أخـلاق، ولماذا لا تكون إثارة الناس لهذه الأزمة بحجم إثارة عمال التنظيفات لقضيتهم؟!.

تلجأ السلطات أحياناً إلى إثارة أزمة لها علاقة قوية بالدين والأخلاق، ومن الأمثلة على ذلك مشكلة المخدرات التي تجتاح العالم كله، فتعقد من أجلها المؤتمرات والندوات، وقد يستدعي علماء ودعاة ليدلوا بدلوهم، وليبيّنوا حرمة تعاطي هذه السموم.. ثم يخرج المؤتمرون بقرارات من أهمها تشديد العقوبة على كل من يتاجر بالمخدرات، لكن هذه القرارات تبقى حبراً على ورق لأن المطلوب منهم تطبيقُها هم المدمنون على المخدرات، وهم الذين يَرْعَونَ العصابات الخطيرة التي تتاجر بـها، ولديهم حيل ووسائل كثيرة يبررون

من خلالها مواقفهم، ويلقون باللائمة على غيرهم.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن السلطات لا تكافح المخدرات لأسباب دينية وأخلاقية، وإنما تكافحها لما لها من أثر مدمر على اقتصاد بلدانهم، ولأن الإدمان مرتبط أشد الارتباط بالجريمة، وازدياد الجرائم يهدد أمن النظام واستقراره.. ولولا هذان السببان لبقيت المخدرات مسألة شخصية مثلها كمثل الخمور التي تبيحها القوانين المعمول بها.

ومن الأدلة على ذلك أن بعض المسؤولين التنفيذيين عن مكافحة المخدرات يقولون في الندوات العامة:

إن الذين يداومون على ارتياد المساجد لا يتعاطون المخدرات.. وإن معظم التائبين إنما ترتبط توبتهم بأسباب دينية.. ثم يختمون حديثهم بالدعوة إلى نشر الوعي الديني بين الشباب.

ثم نسمع فيما بعد أن هؤلاء المسؤولين الصغار قد أبعدوا عن وظائفهم، مع أن بعضهم ليس متديناً، وقال الذي قاله من منطلق الأرقام والإحصائيات التي بحوزته، وهو لا يدري أنه قد تجاوز الحدود المسموح بها، وليس من حقه أبداً التوصية بنشر الوعي الديني لأن المسؤولين الكبار لو خيروا بين انتشار المخدرات أو الوعي الديني لاختاروا الأولى على الثانية التي تهدد فسادهم واستمرارهم في السلطة.

إن أزمة الأخلاق التي تعاظم أمرها، واستفحل شرها يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام آخر تثير أمام الباحثين السؤال الآتي:

هناك صحوة إسلامية يلمسها كل إنسان أينما اتجه: في المساجد، والمدارس، والمصانع، والشوارع العامة، ورغم كل القيود التي تعترضها فإنها

والحمد لله تزداد رسوخاً وصلابة وكثرة.

وهناك أيضاً فساد عريض على المستويين الفردي والجماعي.. فكيف نجمع بين هذا وذاك؟!.

وقبل الإجابة على هذا السؤال فإنني أهيب بإخواني الدعاة أن يتجنبوا النظرة السطحية القاصرة التي لا يرى فيها بعض الصالحين إلا من كانوا على شاكلتهم من أهل الفضل والتدين.. يرونهم في المساجد التي تزدحم بالمصلين، ويرونهم أيضاً في المنتديات العامة والخاصة فيظنون أن الأمة بخير.. لكنهم لو أتيح لهم أن يروا دوائر أخرى مخالفة لدائرتهم الخاصة لتمالكهم العجب والذهول، وظنوا أنهم في بلد آخر غير بلدهم الذي يعرفونه، ولابد من التذكير أن الدعاة لن يكتب لهم النجاح وتحقيق الأهداف إلا إذا أحاطوا بعلل مجتمعاتهم.

ومن جهة أخرى فإن انتشار الوعي الديني قد تحقق بقدرة الله سبحانه وتعالى، ثم بجهود بعض الصالحين من الدعاة الذين كتب الله لهم القبول عند الناس.. وإمكانات هؤلاء الدعاة بسيطة وغير منظمة، أما إمكانات أهل البغي والفساد فغير محدودة من قوة اتساعها، ففي الإطار الداخلي يتبنى مشروعهم جهات رسمية لها بنود في ميزانية الدولة، وفي الإطار الخارجي تقف الدول الاستعمارية بتاريخها البغيض وراء مخطط إبعاد المسلمين عن دينهم لأنه مصدر قوتهم، ومبعث عزهم، ولا سبيل إلى تحقيق هذا المخطط إلا بنشر الفساد وإشاعة الظلم والاستعباد.

ومن جهة ثالثة فنحن لا نواجه أزمة بدأت آثارها تبرز منذ أعوام قليلة، ولا نتحدث عن المعاصي الفردية التي يتستر المذنبون بفعلها لأن مثل هذه الأفعال لم يخل منها أي عصر من العصور بما في ذلك عصر الرعيل الأول.

متى بدأت هذه الأزمة.. ومن الذي خطط لها وكيف.. وما هو مدى تأثيرها على الدعاة.. وكيف تكون البداية التي ينطلق منها المصلحون، وبمن يقتدون؟! هذا ما سأحاول الإجابة عليه في هذا البحث، ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق.

❋ ❋ ❋

المستعمرون وضعوا أساس هذه الأزمة

كان للإرساليات التبشيرية في بلدان العالم الإسلامي دور في اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب ونفوس من وقع في شراكهم من أبناء أمتنا، ومن أجل ذلك كانوا يعقدون المؤتمرات التي يستعرضون فيها أنشطتهم، ويضعون الحلول المناسبة للمشكلات التي تواجههم، وفي أحد أهم مؤتمراتهم تدارسوا أسباب فشلهم في تنصير المسلمين رغم ضخامة الإمكانات التي يضعونها في هذا السبيل، وفي هذه المناسبة ألقى **القس زويمر - رئيس مؤتمر القدس التبشيري** - خطبة، كان مما قاله فيها:

"أيها الإخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد المسلمين، فأحاطتهم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس، لقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم لها أسمى التوفيق، وإن كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه.. إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة: إما صغير لم يكن له من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام، أو رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش، وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية. **ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريم، وإنما مهمتكم أن**

تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتـها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به في خلال الأعوام السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه، وتـهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً كل التهنئة"، وأضاف قائلاً:

"لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تـهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية.. والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء أنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد".

"إنكم أعددتم نشئاً (في بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن بنوا أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء".

"إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الرب" أهـ [(١)].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب، وجذور البلاء لعبد الله التل

في خطاب زويمر لفتات مهمة يجدر بكل مسلم غيور على دينه أن يتأملها جيداً، ولعل من أهمها قوله: ".. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها".

ومن هنا نستطيع أن نكتشف أسرار وأبعاد كثير من الأمور التي جرت ولا تزال تجري في بلدان العالم الإسلامي:

● قرر المبشرون في مؤتمرهم المنعقد سنة ١٩٠٦ بالقاهرة إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعات الفرنسية لمناهضة الأزهر، الذي قالوا عنه إنه يتهدد كنيسة المسيح بالخطر.

وفي سنة ١٩٠٨ تم افتتاح الجامعة المصرية (أي جامعة القاهرة اليوم)، وكان من أبرز المؤسسين لها والقائمين عليها:

قاسم أمين، سعد زغلول، أحمد لطفي السيد، مرقص فهمي، السير جاستون ماسترو، يعقوب آرتين، إسماعيل صدقي، وسيرة هذه الأسماء وتاريخها الفكري خير دليل على أن هذه الجامعة لن تكون إلا منبراً من منابر التغريب والإفساد، وعلى هذا النحو قامت كليات ومعاهد ومدارس ابتدائية، وثانوية في مصر أولاً ثم في بقية البلدان العربية، وكلها ملتزم بالمنهج العلماني، ولكن بصياغة عربية معدلة لابد فيها من التدرج، وعدم مفاجأة الناس بما لا يطيقون.

● جميع القادة الذين تولوا شؤون الحكم والفكر في بلادنا متخرجون من مدارس تبشيرية صليبية، أو من جامعات غربية كجامعة لندن، وباريس،

ص ٢٧٥ – ٢٧٦، وزويمر من أخبث المستشرقين وأشدهم عداوة للإسلام والمسلمين.

وبرلين، أو من فروعها في بلادنا؛ كالجامعة اليسوعية، أو الأمريكية التي تخرج منها أكثر دعاة القومية العربية الذي تزعموا أحزاباً وحركات علمانية. . والكليات الحربية التي خرّجت قادة الانقلابات العسكرية لا تشذ عن هذه القاعدة في نهجها، وفي تربية الضباط الذين يتخرجون منها، ولا يكتفي المشرفون على هذه الكليات بالمناهج العلمانية التي يتلقاها الدارسون قبل تخرجهم، وإنما يرسلونهم إلى أمريكا وأوربا لما يسمونه دورات تختلف في مسمياتها، وتتفق في نتائجها التي لا تخرج عن الإعجاب بالغرب وتقدمه في مختلف المجالات، وفي مقدمتها إقامة علاقات محرمة يحنون إليها بعد عودتهم إلى بلدانهم.

● أنشأ المشرفون على الجامعة المصرية كليات ومعاهد عليا أطلقوا عليها اسم "الفنون الجميلة" مع التزام قاعدتهم الآنفة الذكر "التدرج وعدم مفاجأة الناس بما لا يطيقون" أتدري أيها القارئ الكريم ما هي هذه الفنون الجميلة؟!.

إنها: التمثيل، والتصوير، والموسيقى، والمسارح، والرقص، والسينما. ولابد للدارسين والعاملين في هذا الميدان من اختلاط الرجال بالنساء، كما أنه لا يمكن للمرأة أن تمارس هذه المهنة إلا إذا خرجت سافرة ومتبذلة.. هذه هي فنونهم الجميلة، أي أن ترقص المرأة مع الرجل على خشبة مسرح عام تمتلئ مقاعده بالمشاهدين فكيف إذا كانت هذه الفنون قبيحة؟!.

● كان من بين الذين مهدوا لهذا الغزو الهدام ناس تخرجوا من الأزهر، وآخرون مثقفون بثقافة إسلامية، ومن بين هؤلاء وأولئك: الشيخ رفاعة الطهطاوي، وقاسم أمين، وعلي عبد الرازق، يقول الأخير في تقريظه لكتاب "السفور والحجاب" للكاتبة السورية نظيرة زين الدين:

"إني لأحسب مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظري في مسألة السفور والحجاب إلى طور العمل والتنفيذ، فلست تجد بين المصريين إلا المخلفين منهم من يتساءل اليوم عن السفور هل هو من الدين أم لا، ومن ضروريات الحياة الحديثة، أم لا، بل نجدهم حتى الكثير من الرجعيين المحجبين منهم يؤمنون بأن السفور دين وعقل وضرورة لا مناص لحياة المدنية عنها".

".. أما إخواننا السوريون فيلوح أن للسفور والحجاب عندهم تاريخاً غير تاريخه في مصر، فهم لم يتجاوزوا بعد طور البحث النظري الذي بدأه بيننا المرحوم قاسم أمين منذ أكثر من عشرين سنة، ولكنهم على ذلك يسيرون معنا جنباً إلى جنب في الطور الجديد الذي نسير فيه، طور السفور الفعلي الكلي الشامل"(١).

أما الشيخ رفاعة الطهطاوي، فقد أعرب في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" عن إعجابه بحضارة الغرب، ودعا بعد عودته من فرنسا إلى الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص، مدعياً أن الرقص على الطريقة الأوربية ليس من الفسق في شيء، بل هو أناقة، وفتوة(٢).

ولم يكن موقف الشيخ محمد عبده بعيداً عن موقف هؤلاء المحسوبين على الأزهر، يقول عباس محمود العقاد وهو من المعجبين بالشيخ: إن دراسة الفنون الجميلة من بنات أفكار محمد عبده، ومن جهة ثانية فقد نقل عن بعض الذين كانت لهم صلة بالشيخ أنه هو الذين ألف كتاب "تحرير المرأة"، أو أنه هو الذي

---

(١) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٨، انظر مجلة الهلال، أغسطس ١٩٢٨ [عن كتاب العلمانية للشيخ سفر الحوالي، ص: ٦٣١].

(٢) عودة الحجاب: ١/ ٢٦، للدكتور محمد بن أحمد بن إسماعيل، وكتاب: الإسلام والحضارة الغربية، ص: ٣٦، د. محمد محمد حسين.

أملى أفكار هذا الكتاب على تلميذه قاسم أمين إرضاء للأميرة "نازلي فاضل" التي غضبت من كتابه الأول الذي ينتصر فيه للحجاب، وينتقد بعض السـيدات المصـريات اللائي يتشبهن بالأوربيـات، فظنت الأميرة نازلي بأن قاسماً يعنيها.

الأميرة نازلي فاضل هي ابنة الأمير مصطفى فاضل نجل إبراهيم بن محمد علي الكبير، وكان والدها مصطفى فاضل يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من الخديوي إسماعيل، وهي – نازلي – كانت ضد الخديوي عباس، ولهذا السبب كان لها صلة وثيقة بقصر "الدوبارة" وهو مقر المندوب السامي الإنكليزي، كما كان لها صالون يرتاده كبار أهل السياسة والفكر من أمثال: المندوب السامي البريطاني اللورد كرومر، فارس نمر، يعقوب صروف، الشيخ محمد عبده، قاسم أمين، اللقاني، محمد بيرم، سعد زغلول.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأميرة المعجبة بالغرب، والداعية إلى السفور والاختلاط كانت تطبق الاختلاط في صالونـها يوم أن كان الاختلاط غير وارد طرحه للنقاش عند عامة الناس وخاصتهم إلا من كانوا على شاكلة رواد صالونـها.

إذن كان الشيخ محمد عبده من رواد هذا الصالون، ومن المعجبين بالأميرة، وكانت هي معجبة به كذلك، وقال الشيخ فيها – كما جاء في كتاب تاريخ الإمام –: "حضرة البرنسيس التي لها من قلبي المنـزل الأبـهى، والمقام الأسمى"، وما كان الشيخ – وهو الذي يتقد ذكاء – يجهل انحراف هذه الأميرة وفسادها، ولا عجب إذا علمنا أنـها تزوجت فيما بعد من طبيب أمريكي فأخرجها عن الإسلام، وتنصَّرت – والعياذ بالله – وكذا ابنتها"فتحية"، – شقية

الملك فاروق - فقد تزوجها قبطي مصري، بدعوى أنه أسلم، ثم تبين عدم إسلامه، فحملها على أن تنصرت معه، وأخذ مالها، وفارقها، ثم قتلت فيما بعد في أوربا"(١).

● إذا كان الاختلاط والسفور قاصراً على صالونات: نازلي فاضل، ومي زيادة، وروز اليوسف، وكان رواد هذه الصالونات نوعية محدودة من أهل الفكر والسياسة، فإن هدى شعراوي تمكنت من السير بـهذا النشاط الهدام خطوات أخرى، ففي سنة ١٩١٩ قادت مع زوجة سعد زغلول المظاهرة النسائية التي طافت شوارع القاهرة هاتفة بالحرية، "ثم تجمعن أمام ثكنات قصر النيل، وهتفن ضد الاحتلال.. ثم بتدبير سابق، ودون مقدمات ظاهرة، خلعن الحجاب، وألقين به في الأرض، وسكبن عليه البترول، وأشعلن فيه النار.. وتحررت المرأة!!! "(٢).

وفي عام ١٩٢٣ دعت عدداً من النساء لحضور اجتماع في منـزلها، وترتب على هذا الاجتماع بدء تشكيل الاتحاد النسائي المصري، الذي أخذت مجالات أنشطته تتطور وتتشعب داخل المجتمع المصري.

وفي عام ١٩٤٤ تمكنت مع زميلات لها من عقد المؤتمر النسائي العربي الأول الذي أثار موجة غضب واستنكار في عدد من العواصم العربية.

وكانت هدى شعراوي في جميع أنشطتها النسائية مقلدة للمرأة الغربية، ومنفذة لما يطلب منها في الاتحاد النسائي الدولي، وفضلاً عن هذا وذاك فقد

---

(١) عودة الحجاب، القسم الأول، معركة الحجاب والسفور، د. محمد بن أحمد بن إسماعيل، ص: ٣٧ - ٣٩.

(٢) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص: ٢٥٨.

كانت معجبة بكل ما في الغرب، حتى شراسة أخلاق الرعاع في باريس كانت معجبة بـها، ففي خطبة لها بمناسبة الاحتفال بالعيد العشرين للاتحاد النسائي الذي عقد في مدينة روما تقول:

".. ومنذ ذلك اليوم – أي يوم قبلت عضوية مصر في الاتحاد النسائي الدولي – قطعنا على أنفسنا عهداً أن نحذو حذو أخواتنا الغربيات في النهوض بجنسنا مهما كلفنا ذلك، وأن نساهم بأمانة وإخلاص في تنفيذ برامج الاتحاد النسائي الدولي الذي يشمل أغراضنا المشتركة".

وتقول عن فرنسا في أول زيارة لها:

"وقد أعجبني في باريس كل شيء حتى شراسة أخلاق الرعاع فيها، لأنـها لا تخلو من خفة الروح وتعبر عن شخصية لا تكلف فيها ولا تغيير، فالفرنسيون أشخاص متفردون بعبقريتهم، مستقلون في أفكارهم وطباعهم وأعمالهم وصفاتـهم حتى في عيوبـهم".

وفي خطبة لها أمام الطاغية كمال أتاتورك قالت: ".. إن هذا المثل الأعلى من تركيا الشقيقة الكبرى للبلاد الإسلامية، شجع كل بلاد الشرق على محاولة التحرر، والمطالبة بحقوق المرأة.. وأضافت: إذا كان الأتراك قد اعتبروك عن جدارة أباهم وأسموك [أتاتورك] فأنا أقول: إن هذا لا يكفي بل أنت بالنسبة لنا [أتاشرق] فتأثر كثيراً بـهذا الكلام الذي تفردت به، ولم يصدر معناه عن أي رئيسة وقد شكرني كثيراً في تأثر بالغ، ثم رجوته في إهدائنا صورة لفخامته لنشرها في مجلة [الإجيبشيان] "[١].

---

(١) هذه المقاطع يمكن العودة إليها في الصفحات التالية من مذكرات هدى شعراوي: ١٢٩، ٢٤٩، ٤٥٤، كتاب الهلال، وكتاب عودة الحجاب، مصدر سابق، ص: ١١٣.

إن هدى شعراوي برت بعهدها الذي التزمت به في روما!! فحذت حذو المرأة الغربية، واتخذتـها قدوة لها، وفي تركيا رشحت كمال أتاتورك ليكون أباً للشرق كله، وليس أباً لتركيا وحدها، وهي التي لا تجهل فساد هذا الطاغية وامتهانه للمرأة عندما جعل من قصوره موطناً للدعارة والفجور، وإذا كنا اليوم نقرأ مذكرات بعض الذين عاشوا مع أتاتورك، ونقرأ فيها فظائع عن مخازيه بحق المرأة نعف عن ذكرها في كتابنا، فكيف بمن كانت على صلة قوية بتركيا ورجال السياسة والفكر فيها أيام الطاغية أتاتورك؟!، ولا تجهل هدى شعراوي شدة عداوة أتاتورك للإسلام والمسلمين، فكيف تعمل على تحرير المرأة ثم تصفق من جهة أخرى للذي استعبد الأمة التركية رجالاً ونساءً.. عقيدة وفكراً، وجعل من نفسه إلهاً يعبد؟!.. إن هدى شعراوي تريد - عن علم وخبث - أن يحلّ بمصر خاصة والشرق عامة ما حلَّ بشعب تركيا.

وخلاصة القول: إن هدى شعراوي استفادت من أخطاء: نازلي فاضل، وروز اليوسف، ومي زيادة فتداركتها، وأقامت علاقات واسعة مع أهل الفكر والسياسة والإعلام، ومن ذلك بعض شيوخ الأزهر، وما كانت تخطو خطوة جديدة في مسيرتـها إلا وتـهيء لها مختلف الأسباب، وتقف في بعض الأحيان في صف الذين يدافعون عن الإسلام، ولها في ذلك رد على بعض الأقباط.

لكن هدى شعراوي رغم إمكاناتـها الواسعة ما كان لها أن تحقق هذا النجاح الذي أحرزته لو لم تكن ابنة عميل الإنجليز محمد سلطان باشا، وزوجة علي شعراوي باشا الرجل الثاني بعد سعد زغلول في حزب الوفد، ولولا دعم الدوائر الاستعمارية لها داخل مصر وخارجها.

أما بالنسبة لدور الشيخ محمد عبده المؤسف وعلاقته بالأميرة نازلي فاضل وبمن كان يتردد على صالونـها، فلا أظن أن الشيخ كان يريد للمرأة

المسلمة ما يريده الإنجليز والفرنسيون ولا حتى ما تريده نازلي وغيرها، ولكن خصومته مع الخديوي ومصالح دنيوية أخرى دعته إلى الاستعانة بـهذه المرأة وباللورد كرومر الذي كان يتردد على صالونـها، وكان رواد هذا الصالون من معارضي الخديوي.. والشيخ في هذا مؤاخذ غفر الله له.

* * *

إن سياسة الإنجليز والفرنسيين كانت منسجمة انسجاماً كاملاً مع ما قاله زويمر، وخير مثال على ذلك ما ذكره الجبرتي عن أحداث سنة خمس عشرة ومائتين وألف، قال رحمه الله:

"ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونـها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيس العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخضاعه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق، وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوا من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فزيوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات وغيرهن من النساء الفواجر، ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم

لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات. وخطب الكثير منهم بنات الأعيان، وتزوجوهن رغبة في سلطانـهم ونوالهم فيظهر حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزينات بزيهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابـها وأضيافها على مثل شكلها. وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين في الأحكام.

"ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاذيف بسخيف موضوعاتـهم وكتائف مطبوعاتـهم وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير.

وأما الجواري السود فإنـهن لما علمن رغبة القوم في منطق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأواجاً فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك"[١].

---

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للشيخ عبد الرحمن الجبرتي، دار الجيل: ٢/ ٤٣٦.

المستغربون على خطا أساتذتهم

رأينا فيما مضى أن جحافل المبشرين والمستعمرين كانوا منذ مطلع القرن التاسع عشر يعملون وفق خطة محددة، هدفها إفساد أخلاق المسلمين وإبعادهم عن التمسك بتعاليم دينهم الذي هو عصمة أمرهم، وكان التجاوب مع هذه الخطة محبطاً لآمال وطموحات المبشرين كما أشار إلى ذلك زويمر في خطبته.

وبعد احتلال الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨، شهدت خطة المستعمرين بعض التقدم الذي تزايد عندما أخذ محمد علي باشا وأبناؤه من بعده يرسلون الطلبة الصغار إلى فرنسا بقصد الدراسة، وكان هؤلاء الطلبة يتسنمون مراكز قيادية بعد عودتهم إلى بلدهم، كما كانوا يستغلون هذه المراكز التي شغلوها في الدعوة إلى الفكر الغربي العلماني.

غير أن الإنجليز عند احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ استطاعوا أن يحققوا نجاحاً واسعاً عجز عنه الفرنسيون، ولعل السبب يعود إلى أن النفوس كانت مهيأة لذلك، ومن جهة ثانية فإن طريقة الإنجليز في العمل كانت أكثر خبثاً ودهاءً، ولهذا فقد أنشؤوا المدارس والجامعات، ووضعوا المناهج الكفيلة بتحقيق أهدافهم، وغني عن البيان أن داهيتهم "دنلوب" كان مستشاراً لوزارة المعارف، والوزير عنده ليس أكثر من منفذ لما يرسمه ويخطط له هذا المستشار، وفضلاً عن هذا وذاك فقد ربى الإنجليز أجيالاً اختاروهم بعناية فائقة ودراية تامة، وأصبح التلامذة بعد رحيل المستعمر رسلاً له، يترسمون خطاه، ولا يرضون بغير نهجه بديلاً.

كانت مسألة تحرير المرأة - كما زعموا - شغل تلامذة المستعمرين الشاغل، ومن أجل تحقيق هذا الهدف حاولوا اختصار الوقت مستغلين ما كسبوه من شعبية وتأييد جماهيري عريض، ومن الذي يستطيع في تلك الفترة أن يشكك بالزعيم سعد زغلول وأمثاله من أبطال النضال والاستقلال (!!)، بل من ذا الذي يستطيع أن يزعم بأن هؤلاء القادة ينفذون مخططات المستعمر الدخيل؟!!، مع أن الخاصة والعامة يعلمون أنـهم من ألد أعدائه.

وخلال فترة قياسية لا تتجاوز أربعة عقود نجح التلامذة في تحقيق ما عجز عنه زويمر وأمثاله، وبشكل أخص فيما أسموه تحرير المرأة:

- فنظام الدراسة في الجامعات قام على أساس الاختلاط بين الجنسين، ثم شمل هذا النظام المعاهد والمدارس على مختلف مراحلها.. وأصبحت هذه الجامعات مثل معارض الأزياء، لأن القوانين المرعية لا تشترط لباساً معيناً، وهذا يعني أن من حق النساء أن يلبسن ما يحلو لهن ولو كان فيه مخالفة لقواعد الدين والأخلاق، وليس من حق أحد أن يمنع البنت من الجلوس مع الشاب الذي تختاره على مقعد واحد، ولهما حق الخروج والدخول إلى الجامعة سوية، وما يصاحب هذا الدخول والخروج من خلوات محرمة، ولا تسل عن الحلال والحرمة في ذلك لأن أبطال الاستقلال حرروا المرأة من الظلم والظلام والاستبداد، وأصبحت مثل الرجل، ولم تعد مجرد متاع يتصرف بـها ولي أمرها كما يشاء.

- والمرأة صارت شريكة للرجل تعمل وإياه في جميع مؤسسات الدولة، وفي الشركات العامة والخاصة وكثيراً ما يحدث أن يكون مكتب الرجل والمرأة في غرفة واحدة، يمكثان فيها ثماني ساعات في اليوم، والباب لابد وأن يكون مغلقاً معظم الوقت.

إن هذا الوضع الذي لا يشك مسلم يعرف الحد الأدنى من العلوم الشرعية بحرمته أصبح هو الوضع الطبيعي المألوف، ومن لا يعجبه ذلك فعليه الاستقالة من عمله، ومن الصعوبة بمكان أن يجد وظيفة بديلة ليس فيها مثل هذه المنكرات.

وإذا كان هذا حال أصحاب الوظائف العادية المتواضعة، فأصحاب الوظائف الكبيرة: كالوزير، ووكيله، والمدير العام، وغيرهم لابد أن يكون لكل منهم مسؤولة عن إدارة شؤون مكتبه "سكرتيرة"، وهم الذين يختارونـها، وقد جرت العادة أن يكون الجمال هو الشرط الأول في هذا الاختيار، ويكاد الباحث لا يجد امرأة قبيحة الشكل تشغل وظيفة "سكرتيرة".

وما الذي يمكن تصوره من رجل وامرأة قد نُزِعَ خوف الله من قلبيهما عندما يغلق عليهما باب واحد معظم النهار؟!، أجل ما الذي يمكن تصوره إذا كانت المرأة جميلة وحريصة على إرضاء رئيسها لأن هذا الرضى ضمان لاستمرارها في العمل مع زيادة مرتبها ومشاركة الوزير في إدارة شؤون الوزارة؟!.

سبحان الله! كيف سمح بعض الرجال لزوجاتـهم أن يجلسن مع الرجال الغرباء في مكاتب تتحقق فيها الخلوة المحرمة ثماني ساعات في اليوم، مع أن الزوج نفسه قد لا يجلس مع زوجته مثل هذه المدة في يومه؟!، وبعد كثير من التردد أضيف: لقد استحدث بعض كبار المسؤولين غرف نوم تابعة لمكاتبهم، وهذا ما قرأته في أكثر من صحيفة عربية تحدثت عما يجري في بعض البلدان العربية وليس الأجنبية.

- وللمرأة القِدْحُ المعلى في أماكن اللهو والعبث والطرب: فهي في المسارح المنتشرة في طول البلاد وعرضها، ترقص وتغني لرواد هذه الأوكار

الهدامة، ولكل مغنية أو راقصة جمهورها الذي يغص به المسرح.

وهي في السينما تمثل مع الرجال أدواراً هابطة لا تخرج في موضوعاتـها عن الجنس والجريمة.

وهي على شاشة التلفاز ترقص وتغني وتمثل، والتلفاز أيضاً مشكلة أخرى، فقد كان علماؤنا ودعاتنا يحذّرون من دور السينما مع أن وجودها كان محدوداً، ولا يذهب إليها إلا كل من يستسهل الوقوع في المنكرات، فأصبحت السينما عن طريق التلفاز موجودة في كل بيت من بيوت المسلمين، ثم جاء دور البث المباشر في الإفساد، وفي هذا البث كل ما يخدش الحياء، ويخل بالمروءة ما نترفع عن وصفه، ثم يأتي من يقول: إنني ما أدخلت هذا الجهاز إلى بيتي إلا وأنا قادر على التحكم فيه وسماع ما يبيح الشرع سماعه.. وهذا من المستحيلات، فقد يكون الأمر كذلك في حال وجود هذا القائل قرب الجهاز في بيته، أما إذا غاب الرجل عن منـزله وانصرف إلى عمله اليومي، فإن أبناءه لابد أن يبحثوا عن هذا الذي يمنعه أبوهم منه، وكل ممنوع مرغوب.

- والمرأة أحد أبرز أركان السياحة والاصطياف، وما السياحة عند الغالبية العظمى من هواة هذا الفن إلا المرأة والخمرة، وبعد ذلك بدرجات تأتي أهمية دور الآثار والمتاحف العامة، ولهذا تعمد الجهات المسؤولة عن هذا القطاع إلى إنشاء كم كبير من الأوكار يكثر فيها وجود المرأة: كالمسارح، ودور السينما، والفنادق، والملاهي، والحدائق العامة، ومحلات بيع الخمور، ويمضي العام في الاستعداد لهذا الموسم وفي إقامة حفلات رقص وغناء صاخبة يشارك فيها كبار الممثلين والمغنين من الجنسين.

وزيادة على ذلك تقوم السلطة باستنفار فريق من قوات الأمن لحماية

السواح والسهر على راحتهم، ولا عجب في ذلك فإن قوات الأمن المسؤولة عن مكافحة الفساد والدعارة التي يسمونـها في بعض البلدان "قسم الآداب العامة".. هذه القوات أصبحت تحمي وتحرس السواح الذين يمارس معظمهم الفواحش والمنكرات، ثم يعودون إلى بلدانـهم لينشروا أخبار هذه الفضائح التي مارسوها أو سمعوا بـها من زملائهم في السفر.

ولكن الذي يثير العجب أن أكثر السواح من الأوربيين، وهكذا فقد انعكست الآية حيث كان ناس من المترفين في بلادنا يسافرون إلى البلدان الأوربية بحثاً عن الفواحش والمنكرات، فأصبح المترفون وغيرهم حتى من الفقراء الأوربيين يأتون إلى بعض بلداننا لممارسة الرذيلة فيها.. وهذا كله رغم بشاعته وقبحه لا يثير حفيظة وغيرة المسؤولين عن السياحة، وكل الذي يهتمون به نجاح الموسم، وزيادة عدد السواح، لأن هذه الزيادة تعني ازدهار اقتصاد البلد، وضمان دخول العملة الصعبة، ولو كان ذلك كله على حساب الدين والشرف والأخلاق.

وإذاً:

عندما رفع تلامذة المستعمرين من أبناء جلدتنا شعار تحرير المرأة كانوا يطبقون الخطة نفسها التي رسمها: زويمر، وبونابرت، وكرومر، وكان الأساتذة والتلامذة يعلمون أن المرأة هي قوام الأسرة، وفسادها يعني فساد الأسرة، وفساد الأسرة يعني فساد المجتمع، وهكذا كان شأن بني إسرائيل في تاريخهم:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

(إن الدنيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون.

فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)[١].

وعندما فتن بنو إسرائيل بالنساء أصابـهم الوهن والبغي، وكثرت بينهم الخلافات والانقسامات، وما زالت الفتن تترى عليهم بعد فتنة النساء حتى دالت دولتهم، وتفرقوا في الأمصار شذر مذر، واستحقوا غضب الله ومقته.

ودول أوربا في العصر الحديث أصابـها ما أصاب اليهود في تاريخهم، كانت أسرهم محافظة ومتمسكة بالخلق والدين، وتغيرت أحوالهم بعد قيام الحركات العلمانية، حيث كانت المرأة أول المستهدفين بـهذا التغيير، فخرجت من منـزلها تعمل والرجال سواء بسواء في مختلف المرافق العامة، وبعد خروجها من المنـزل خرجت عن عفافها وطهرها، فانفرط عقد الأسرة، وانـهارت أخلاق المجتمع، ولابد أن يكون مصيرهم كمصير بني إسرائيل الذي ورد ذكره في عدد من سور القرآن الكريم.

ولا تزال المرأة إذا خرجت عن هدي الإسلام من أشد الفتن على الرجال وأعظمها أثراً:

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[٢].

ينكر دعاة الاختلاط والتغريب أن تكون المرأة فتنة، ويزعمون أن مثل هذا القول لا يقوله إلا كل من يحتقر المرأة ولا يراها صالحة إلا للمتعة والخدمة في المنازل، ويُصِرُّون على الادعاء بأنـها مثل الرجل، وأن الاختلاط بـها أمر عادي جداً.

وقد كذبوا في هذا كله لأن أخبار فضائحهم بسبب الاختلاط مادة دسمة للصحافة وسائر وسائل الإعلام، ولا يخجل بعضهم من الاعتراف بـهذه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، انظر صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧/ ٥٥.

(٢) متفق عليه.

الفضائح، وبيعها بأثمان باهظة للناشرين، ويندر أن نجد سياسياً[١] أو فناناً - من الجنسين - قد نأى بنفسه عن هذا الانحطاط الخلقي لا فرق في ذلك بين دول الشرق والغرب، وهناك ناس من بينهم تكشف فضائحهم بعد هلاكهم بأعوام قد تبلغ قرناً أو يزيد من خلال الاطلاع على وثائق جديدة، وقد كان يظن بهم البعد عن مثل هذه المواطن النتنة، ودعاة التغريب هم الذين يحتقرون المرأة لأنهم أخرجوها من منزلها حيث العفاف والوقار والحشمة، وزجوا بها في مواطن مشبوهة تتعارض مع رسالتها كأم وربة بيت، وفي طليعة هذه المواطن اتخاذها مادة دعائية للتجارة والتكسب، والأمثلة على ذلك كثيرة وفي أماكن متعددة أبرزها ما يعرض على شاشة التلفاز.

وكل مسلم متمسك بأحكام الدين وآدابه لا يلتفت إلى أقاويل وأكاذيب دعاة التغريب، بل يستسلم وينقاد لقول المعصوم ﷺ : (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)، فيجتنب كل ما يقربه من هذه الفتنة، ومن ذلك الخلوة المحرمة: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما)[٢].

ولا أشك بانتشار الشياطين في المدارس والمعاهد والجامعات، وفي مكاتب الوزارات والمؤسسات والشركات التي يختلط فيها الجنسان، وما هذه المناكير التي تحدث وينشر بعضها إلا بسبب إغراءات الشياطين لأناس يسهل عليهم الاستجابة لنداء الشياطين.

---

(١) السياسيون المتمسكون بدينهم وخلقهم هم من هذا النادر، والأصل في العمل السياسي المعاصر منع الإسلاميين من دخول هذا النادي.

(٢) رواه أحمد: ١/ ١٨، والترمذي: ٣/ ٢٠٧، وقال: حسن صحيح.

علمانيون أكثر من العلمانية

العلمانية تعني أن يكون الدين لله، أي أن يتعبد الإنسان ربه بالطريقة التي يريدها، ويكون الحكم وشؤون السياسة لقيصر، وليس لقيصر أن يتدخل في شؤون الدين ومؤسساته، كما أنه ليس من حق الله أن يتدخل في شؤون قيصر.

وتعني العلمانية أيضاً أن تضمن الدولة حرية الاعتقاد، فلا تسمح لأية جهة ولو كانت حكومية أن تفرض على أماكن العبادة شيئاً مخالفاً لأنظمتها وللقرارات التي يتخذها رجال الدين طالما بقيت هذه الأنظمة والقرارات في حدود أماكن العبادة.. صحيح أن الثورة الفرنسية تطرفت بعض الشيء في مفهوم العلمانية، وانتزعت من رجال الدين كثيراً من الحقوق التي يتمتع بها أمثالهم في بقية الدول الأوربية، لكن دور العبادة بقيت مستقلة ومحترمة.

المستغربون في بلادنا كانوا في علمانيتهم أشد علمانية من العلمانية في مفهومها الصحيح وفي تطبيق الدول الأوربية لهذا المفهوم، وسنختار فيما يلي أمثلة تتصل بموضوع البحث:

١ - **حجاب المرأة**: يرى الغربيون أن المرأة لها نفس الحقوق التي يتمتع بها الرجل، ومن ذلك اللباس لأنه حق شخصي لكل فرد لا يجوز التدخل فيه. أما البلدان الإسلامية التي تدين حكوماتها بالنظام العلماني فقد منعت الحجاب الشرعي في الجامعات والمدارس وغيرها من مؤسسات الدولة، ومن الأمثلة على ذلك:

أ – **تركيا**: فمن جملة القرارات التي اتخذها عدو الإسلام أتاتورك بعد هدمه للخلافة الإسلامية منع الحجاب في سائر مؤسسات الدولة من تعليمية وغيرها، وما كان الأمر عنده قاصراً على منع الحجاب، وإنما كان يريد إشاعة الفساد والإلحاد، وكان قدوة سيئة لشعبه في ممارسة هذه المنكرات، وتمكن خلال خمسة عشر عاماً من وضع المرأة التركية الملتزمة بدينها في المستوى الذي كانت عليه المرأة في أوربا.

وفي عهد عدنان مندريس – أي في أوائل الخمسينيات – ألغت الحكومة عدداً من القرارات الظالمة التي كان قد اتخذها أتاتورك وخليفته عصمت إينونو، وتنفس المسلمون الصعداء طوال هذا العهد، غير أن العسكريين الذين كان أتاتورك يحكمهم وهو في قبره أدركوا أن قرارات مندريس كانت سبباً من أسباب بزوغ فجر الإسلام، فما كان من قادتـهم إلاَّ أن قادوا انقلاباً عسكرياً، تولوا إثره شؤون الحكم، وأعدموا مندريس، ثم اتخذوا إجراءات صارمة ضد التدين والمتدينين، غير أن كيد الشيطان كان ضعيفاً، فالصحوة استمرت وتزايدت والحمد لله.. وهم اليوم يمنعون قبول المرأة في الجامعات إذا كانت من اللواتي يلبسن الحجاب، ولكنهم لا يمنعون المرأة إذا كانت تلبس ملابس فاضحة تخلّ بمعاني الشرف والمروءة، ولا ندري ما علاقة الحجاب بالدراسة، وهل العلم يتعارض مع حشمة المرأة وحسن أخلاقها والتزامها بما فرضه الله عليها؟!، ومما يجدر ذكره أن موقف السلطة من حجاب المرأة في الجامعات وغيرها من مؤسسات الدولة هو أحد إجراءات كثيرة يتخذونـها ضد الإسلام والمسلمين، أما الفساد وهدم قواعد الأخلاق فتلقى منهم كل عون ومساعدة، بل وكبراؤهم من مختلف الأحزاب والحكومات العلمانية المتعاقبة هم الذين يتزعمون عصابات "المافيا" والرشوة وسرقة الأموال العامة، وسجلات المحاكم

والمجالس النيابي- البرلمان - أكبر شاهد على ذلك.

ب - تونس: لم يعد فساد أتاتورك بعد هلاكه قاصراً على تركيا وحدها، وإنما تجاوزها فشمل العالم الإسلامي كله وبشكل أخص البلدان المجاورة لتركيا. لقد وجد فيه المنافقون الزنادقة مثالاً يقتدى به، وبطلاً مناضلاً ضد الاستعمار والرجعية والجهل، وقائداً محنكاً، استطاع خلال فترة زمنية لا تتجاوز العقدين أن يضع بلده في مصاف الدول المتحضرة.

وكان الرئيس التونسي السابق - الحبيب بورقيبة - من أكثر الحكام العرب إعجاباً بأتاتورك وبالنخبة الحاكمة في فرنسا التي نـهل منها ثقافته، وعندما وصل إلى سدة الحكم[١] بأساليب ملتوية لم تكن فرنسا بعيدة عنها، عقد العزم على أن يسلك الطريق نفسه الذي سلكه من أعجب بـهم في كل من باريس وأنقرة، بل كان أكثر منهم تطرفاً في علمانيته وزندقته، ونستعرض فيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

- أصدر حاكم تونس السابق القانون رقم (١٠٨) الذي يمنع ما أسماه بـ "اللباس الطائفي"، وعندما يُذكر اسم هذا اللباس يتبادر إلى الذهن أنه لباس طائفة من الطوائف الشاذة المنحرفة الدخيلة على المجتمع التونسي الذي لا يدين بغير الإسلام، ولا يقبل العادات والتقاليد الوافدة إذا كانت تصطدم مع عقيدة الأمة ومنهجها الرباني الخالد. لكن الأمر ليس كذلك في دين بورقيبة ومنهجه، فاللباس الطائفي عنده هو اللباس الذي فرضه الشارع على المرأة، وهو في شريعته: "مناف لروح العصر والتطور السليم، ولئن ادعى هذا الزيّ لنفسه الاحتشام فإنه يرمز لا محالة إلى ضرب من الشذوذ، والانتساب إلى مظهر

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٦ م.

متطرف هدام، وهو يتعارض مع ما دعا إليه المجاهد الأكبر فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة في الخطاب الذي ألقاه في شهر جوان بمناسبة يوم العلم"[١].

- وتتشدد الدولة في تطبيق قانون اللباس الطائفي، ومن مظاهر هذا التشدد أن الحبيب بورقيبة كان قد ظهر على شاشة التلفاز في احتفال شعبي عام وهو ينـزع بيده الآثمة أغطية النساء التونسيات قسراً عن رؤوسهن وهو يقول لإحداهن: انظري إلى الدنيا من غير حجاب.

ولا تسمح دوائر الأمن والجوازات بمنح المرأة بطاقة هوية أو جواز سفر إذا كانت محجبة، ولا يقبلون منها أقلَّ من أن تدخل على دوائر البوليس وهي حاسرة الرأس كاشفة الصدر.

وفي المدارس يأخذون تعهداً من ولي أمر الفتاة يقر فيه بأن ابنته تخلت عن ارتداء الزي الطائفي - إن كانت ترتديه من قبل -، ثم تتخذ المدرسة الإجراء المناسب إذا عادت الطالبة لارتداء الحجاب، وقد تكون العقوبة الرادعة تمزيق حجاب المرأة أمام مشهد عام من الطلبة لأن التعليم مختلط، وقد يكون أشد من هذا.

ومن مظاهر التشدد في تطبيق قانون اللباس الطائفي أن دوائر المستشفيات والمصحات تمنع علاج أو إسعاف الحوامل المحجبات عندما يأخذهن المخاض. ومن باب أولى فإنـهم لا يعالجون المريضات بشكل عام إذا اقترفن جريمة لباس

---

(١) جريدة الصباح التونسية الصادرة في ٢٣/ ١٠/ ١٩٨١، وهذا البيان ممهور بتوقيع وزير التربية القومية محمد فرج الشاذلي، وكان قد سبقه بيان آخر (٢٣/ ٩/ ١٩٨١) ممهور بتوقيع رئيس الوزراء آنذاك - محمد المزالي - الذي جرد من مناصبه كلها - فيما بعد - وهرب من تونس قبل أن يعتقله زملاؤه، ويعيش الآن لاجئاً سياسياً في إحدى الدول الأوربية، وزاد الخرق اتساعاً في عهد تلامذة الحبيب بورقيبة الذين انقلبوا عليه.

الزي الطائفي!! وإنـها لمواقف همجية تتقزز منها نفس كل حر أبي.

– أبرم النظـام التونسـي عقـود عمـل مع شركـات ألمانيـة في فترة ما بين [١٩٧٠ – ١٩٧٤] تعهدت بموجبها الحكومة التونسية بتصدير [٧٠٠] فتاة لم تتجاوز واحدة منهن سن العشرين عاماً للعمل بالمصانع الألمانية، فأكلن لحم الخنـزير وشربن المسكرات وسقطن في الفتنة، فمنهن من تزوجن الكفار ثم قذفوا بـهن إلى الشوارع، ومنهن من احترفن البغاء.. وأصبحت تونس فيما بعد من الدول المصدرة للفتيات نحو أوربا وغير أوربا بشكل فوضوي أو بشكل منظم عبر شركات دولية للمتاجرة بالرقيق الأبيض.

– أول شيء فعله بورقيبة بعد توليه شؤون الحكم عام ١٩٥٦ تتمثل في إصدار مجلة الأحوال الشخصية في ١٣ أغسطس ١٩٥٦، وإذا كان مجال هذا البحث لا يسمح بالتوسع في دراسة هذه القوانين فلا أقل من عرض نماذج منها فيما يلي:

- منع تعدد الزوجات مع فرض عقوبات زاجرة على كل من يخالف هذا القانون.

- إلغاء قوامة الرجل في بيته ونسخ واجب طاعة المرأة لزوجها.

- صادقت الحكومة التونسية على اتفاقية الأمم المتحدة المتعلقة بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة بمقتضى القانون عدد ٦٨ لسنة ١٩٨٥، وصار من حق المرأة التونسية المسلمة أن تتزوج من غير المسلم، وهناك أمثلة كثيرة على تطبيق هذا القانون، وتحدثت بعض المتزوجات من غير المسلمين عبر وسائل الإعلام عن تجاربـهن في هذا الميدان، ومواقف الأهل والأقرباء منهن، ونقدهن لتزمت المجتمع.

- نشرت مجلة الحقائق التونسية خبر المباراة التي انتظمت بين طالبات كلية الشريعة بجامعة الزيتونة، وحتى لا يظن ظان إنـها مسابقة لمعرفة الفائزة في أفضل بحث دعوي أبادر إلى القول: لا تحسنوا الظن بأمثال هؤلاء الناس بعد أن تكشفت نواياهم الخبيثة، وأي شيء تعني الدعوة عندهم إذا كانوا يمنعون طالبات كلية الشريعة والدعوة من اللباس الطائفي ويفرضون عليهن السفور؟! إنـها مباراة في السباحة!! نعم مباراة في السباحة للطالبات وهن عاريات وليس عليهن إلا ما يستر العورة الغليظة، وبعد إعطاء وزير الشؤون الدينية - الذي كان يشرف على المباراة ومعه جمع من كبار المسؤولين في وزارته - إشارة الانطلاق للطالبات قال مبتهجاً: "الآن تخلصت الزيتونة من عقدتـها".

بقي أن يعلم القارئ الكريم: أن كلية الشريعة وأصول الدين هي البقية الباقية من جامع الزيتونة الذي تأسس في القرن الهجري الأول، وكان طوال التاريخ الإسلامي مركز إشعاع علمي في إفريقيا والأندلس وأوربا.. ويكفي أن نعلم أن من طلبته في العصر الحديث: شيخ علماء الجزائر ابن باديس، والشيخ عبد العزيز الثعالبي، وآل عاشور، وغيرهم من فحول العلماء الذين علّموا الشعب التونسي المسلم العريق كيف يحارب الاستعمار الفرنسي الغاشم، ولماذا يرفض جنسيته التي تنص على أن تونس جزء من الأراضي الفرنسية، وفرنسا بلد علماني وهذا يعني التخلي عن أمور معروفة بالضرورة في الدين الإسلامي.

عجز الاستعمار الفرنسي- رغم إمكاناته الهائلة - عن النيل من صمود علماء الزيتونة، ونجح بورقيبة وخلفه في تحقيق الحلم الفرنسي، فشرد علماءها، وحولها إلى جامعة ممسوخة، وحدد عدد القبول فيها، وفرض الاختلاط بين الجنسين، ورافق ذلك فرض السفور على الطالبات.. ثم كان أمر مباراة السباحة الآنفة الذكر.

ونختم هذا الحديث عن بقايا جامع الزيتونة بالخبر الآتي الذي نشرته مجلة حقائق التونسية بعددها (٣٧٩):

"أحيت الفنانة الصاعدة منيرة حمدي سهرة فنية رائعة!! في رحاب معهد أصول الدين التابع للجامعة الزيتونية، وفي نفس السياق وتلقيحاً للطلبة ضد التطرف تمتع الطلبة بمشاهدة الألعاب السحرية للمنوم المغناطيسي الشهير حمّادي بن جاب الله الفرشيشي".

وإذا كان هذا هو أمر معهد أصول الدين بالجامعة الزيتونية، فلا عجب أن تكون حصص الرياضة مشتركة بين الجنسين في معاهد الدولة وثانوياتـها، ولابد في هذه الحصص من التعري إلا ما يستر العورة الغليظة، كما أنه لابد من ممارسة حركات وألعاب مخجلة.

ولا عجب أن تبث القنوات التونسية الداخلية برامج جنسية ممنوعة حتى في بعض دول أوربا الغربية.

ولا عجب أن يعتبر قانون الوظيفة العمومية اللحية وسخاً ودَرَناً لا يليق بمظهر الموظف التونسي.

ولا عجب من إلغاء نظام القضاء الشرعي، وحل الأوقاف الشرعية وتأميمها، وإلغاء فريضة الصيام.. كما أنه لا عجب أن يكون خلف بورقيبة أسوأ منه[١].

---

(١) كان جلّ اعتمادي فيما كتبت عن تونس على كتاب "تونس الإسلام الجريح" للأستاذ محمد مهدي مصطفى زمزمي، ولقد اهتم المؤلف بتوثيق كتابه توثيقاً جيداً، كما أنني اعتمدت على بعض المصادر التي اعتمد عليها المؤلف (وهي قليلة)، وعلى أقوال الثقات الذين أعرفهم من أهل تونس.

٢ – المساجد: مما لا جدال فيه أن دور العبادة في الأنظمة العلمانية الغربية مستقلة لا يجوز للحكومات التدخل في شؤونـها وفرض تعليمات إدارية أو دينية عليها، ولا يجوز لها التدخل في شؤون السياسة والحكم.

أما في بلادنا، فتطبق العلمانية بمفهومها الصحيح على دور عبادة غير المسلمين من النصارى واليهود وأديان أخرى ما أنزل الله بـها من سلطان، وإذا حدث تجاوز حكومي على أحد هذه الدور، غضبت لغضب هذه الدار أمم وأجهزة شتى من مختلف بلاد العالم، ولا تزال تستنكر وتنذر وتتوعد في السر والإعلان حتى يزول هذا التجاوز، وإننا بـهذه المناسبة نذكّر بنظام الامتيازات التي فرضته الدول الغربية على الدولة العثمانية، وفي ظل هذه الامتيازات تمتع النصارى في كنائسهم ومدارسهم بحقوق ما كان المسلمون أنفسهم يحلمون بـها ولا تزال آثار هذه الامتيازات باقية بشكل مباشر أو غير مباشر.

أما مساجد المسلمين وأوقافهم فليس للقائمين عليها من العلماء حق في إدارتـها، بل الحق كل الحق للنظام العلماني، والعاملون فيها من الخطباء والمدرسين ليسوا أكثر من موظفين يتلقون التعليمات والأوامر من مسؤولي وزارات الأوقاف، وإذا خالف أحد الشيوخ هذه التعليمات ذاق عياله مرارة الفاقة والحرمان على أقل التقديرات، وهذا يعني طرده من عمله ومنعه من الوعظ والتدريس والخطابة في المساجد، ومن المؤسف أن الشيوخ ليس لهم دخل ينفقون منه على عيالهم إلا هذا الراتب الشهري الضئيل الذي يأخذونه من وزارة الأوقاف، ولهذا فهم يفكرون ملياً قبل اتخاذ موقف يحرمهم من هذا الراتب.

الأنظمة العلمانية لابد وأن تختار وزراء الأوقاف من نفس الفصيلة التي ينتمون إليها أو أن يكون موظفاً مطيعاً لرئيس الدولة ولو كان عنده بعض التدين، وطاعة النظام ورئيسه تقتضي محاربة كل نشاط دعوي وأخلاقي إذا كان

له تأثير قوي على رواد المساجد، ونضرب المثال الآتي على ذلك:

نلحظ أحياناً أن نشاطاً دعوياً إصلاحياً يشق طريقه إلى بعض المساجد في بلد ما دون أن يكون اتفاق مسبق بين أئمة هذه المساجد، وقد لا يعرف أحد منهم الآخر.. والشاهد هنا أن هذا النشاط يسترعي انتباه عامة الناس وخاصتهم، وتزدحم هذه المساجد والساحات المحيطة بها بالمصلين الذين يأتي عدد كبير منهم من أحياء بعيدة عن هذه المساجد، ويأتون أيضاً من مدن أخرى، ومن بين الوافدين المصلين لصوص، ومجرمون، ومدمنون على المخدرات، كتب الله جل وعلا لهم الهداية على أيدي هؤلاء العلماء الأفاضل الذين عمروا مساجدهم بالعلم والورع والتقوى، والكلام الذي يخرج من قلوب نقية طاهرة لابد وأن يصل إلى قلوب الناس.

الأنظمة العلمانية في بلادنا لا تقبل هذه الظاهرة التي تهدد وجودها واستمراريتها، وتخشى من انتقالها إلى مساجد ومدن أخرى فيؤدي ذلك إلى فقدانها زمام الأمور، ولهذا تسارع إلى إصدار أوامرها الفورية بإبعاد هؤلاء العلماء عن مساجدهم، وتمنعهم من الوعظ والتدريس في جميع المساجد والمؤسسات العامة، وليس مهماً أن يتم هذا الإبعاد دفعة واحدة أو على مراحل، ثم تعمد - بعد دراسة متأنية - إلى تعيين صنف آخر من الدعاة في هذه المساجد من الذين لا يهتمون إلا بأنفسهم وأسرهم ورواتبهم التي يتقاضونها في نهاية كل شهر. ويتجنبون كل قول أو فتوى تغضب الجهات الرسمية المسؤولة عنهم.

وطاعة الأنظمة العلمانية والانقياد لها في تدريس القرآن والسنة والعقائد لابد وأن يتعارض مع طاعة الله سبحانه وتعالى، كما أن الإيمان بالله الواحد الأحد لابد وأن يصاحبه الكفر بكل ما يعبد من دون الله من أوثان وأصنام

وطواغيت.

والذي يحدث فيما بعد أن معظم الجمهور الذي كان يرتاد هذه المساجد ينفض عنها، وتخفت جذوة الإصلاح في غياب دعاتها الذين فرض عليهم الحصار، مع أنهم كانوا من خلال دروسهم ومواعظهم يتجنبون إثارة أية مشكلة مع الأنظمة.

ثم يتكرر هذا المشهد في مساجد أخرى، ويدرك كل من يتابع هذه الظاهرة بأن الذين يطاردون العلماء المصلحين، ويضيقون الخناق عليهم، ويبعدونهم عن مراكز الدعوة والتوجيه يحققون من وراء ذلك هدفين:

الأول: فتح الباب على مصراعيه أمام دعاة الغلو والتطرف من جهة، وأمام دعاة النفاق والمداهنة من جهة أخرى وكلاهما شر مستطير ومنزلق خطير.

الثاني: نشر الفساد والميوعة والإلحاد، وفي غياب أهل الحق والإصلاح يخلو الجو أمام دعاة الشر والإجرام، فكيف إذا كان في أجهزة النظام من يدعو إلى ذلك جهاراً نهاراً.

٣ - الديموقراطية: ممارسة الديموقراطية عند الأوربيين حق لكل مواطن، ومثل ذلك تأسيس الأحزاب والجماعات، وإصدار الصحف والمجلات، وقد تصدر هذه الصحف في أكثر هذه البلدان دون أخذ ترخيص مسبق من الحكومة.

وليس من حق أية حكومة منع تأسيس أي حزب معارض لها سواء كان تأسيسه قائماً على أساس ديني أو غير ديني، ويستطيع هذا الحزب مقاضاة أكبر شخصية حكومية إذا أصدرت قراراً أو اتخذت إجراء يضر بمصلحة هذا

الحزب، والقضاء يقول كلمة الفصل في القضية المثارة لأنه مستقل وليس للحكومة أي تأثير عليه.

وفي كل من إيطاليا وألمانيا لعب الحزبان المسيحيان دوراً مهماً في سياسة هذين البلدين، وخاصة بعد أن تمكنا في فترات مختلفة من الحصول على الأكثرية في الانتخابات "البرلمانية".

ولكن الأمر في بلادنا يختلف، لأن شريعة هذه الأنظمة لا تسمح بقيام أحزاب سياسية على أساس ديني، أما الجمعيات الخيرية فهناك قيود مشددة تصل إلى حد عدم السماح لأي منها إلا إذا كانت تخدم مصلحة النظام، وقل مثل ذلك في شأن إصدار الصحف والمجلات.

وإذا كان قد جاء حين من الزمن سمحت فيه بعض الحكومات بقيام أحزاب إسلامية، فلأن هناك معلومات مؤكدة لدى الذين منحوا الترخيص لها تشير إلى أن دور هذه الأحزاب سيكون ثانوياً ولن يمكّن من الحصول على الأكثرية في الانتخابات التشريعية وعندهم من الوسائل ما يساعد على ذلك:

منها: أن الديموقراطية في بلادنا تصاغ حسب مزاج الحاكم وبطانته، وإذا تغيّر المزاج تغير معه قانون الانتخابات.

ومنها: أن تزوير الانتخابات هو الأصل في هذه المسألة، وعدمه هو الاستثناء.

وإذا خرق الحزب الإسلامي هذه القيود كلها وحصل على الأكثرية التي تمكنه من الانفراد في الحكم، فإن الجيش وقوات الأمن ستكون له بالمرصاد، وتتحرك على الفور، فتفرض الأحكام العرفية، وتلغي الانتخابات، وتقيل الحكومة التي أشرفت على الانتخابات، وتتقلد شؤون الحكم، وفي ظل أحكامها

العرفية الجائرة تبدأ بمطاردة الإسلاميين ومنعهم من أي نشاط سياسي لأنهم أعداء ألداء لدستورهم العلماني، وموقفهم هذا يشمل جميع الأحزاب والجمعيات الإسلامية دون أي تفريق بين الذين يعملون في المجال السياسي وبين الذين يقتصر نشاطهم على الأعمال الخيرية والتعليمية.. وإذا تأكد العسكريون من نجاحهم في سحق الحزب الإسلامي فقد يسمحون بقيام ديموقراطية مزيفة لا مجال فيها لوجود أحزاب إسلامية.

ومما لا يثير أي استغراب عند الذين يتابعون الأحداث أن جميع الأحزاب والشخصيات العلمانية تتوحد فيما بينها رغم ما بينها من إحن ومكائد ضد المشروع الإسلامي، وتستقبل الانقلابات العسكرية بالتأييد لأنه سيريحها من هذا الذي تراه كالكابوس أو أشد.

من أقرب الأمثلة على ذلك ما حدث في كل من الجزائر وتركيا، والفرق بينهما أن الحزب الإسلامي التركي صابر مجامل يريد أن يمضي بتجربته إلى نهاية الشوط رغم كل ما يتلقاه من ضربات، أما الحزب الإسلامي الجزائري فكان موقفه أقرب إلى الشدة، وقابل العسكريون هذه الشدة بهمجية يعجز عنها الوصف، ولا يزالون يعتبرون معركتهم مع الإسلاميين معركة حياة أو موت ولو كان في ذلك دمار الجزائر كلها، وما صنعه العسكريون في الجزائر غير مستبعد أن يصنعوه في كل بلد إذا تحقق عندهم بأن الإسلاميين سيصلون إلى الحكم، ومما هو جدير بالذكر أن أي انقلاب عسكري لابد وأن يتبعه الفساد بكافة أشكاله وأصنافه، لأن جميع المنافقين وأصحاب الأهواء والمصالح ينضوون تحت راية الانقلابيين المعادية للإسلام والمسلمين.

* * *

ترى هل كان قادة الأنظمة العلمانية في بلادنا على خلاف مع أساتذتـهم الأوربيين في هذه الأمور الثلاثة التي تطرفوا فيها [حجاب المرأة، المساجد، الديموقراطية]؟!.

ليس هناك من خلاف لأن الأوربيين متفقون مع تلامذتـهم على أن دول العالم الثالث لم تصل إلى المستوى الراقي الذي وصلته أوربا، ولهذا لابد من التشدد في تطبيق النظام العلماني، وخلال فترة استعمارهم العسكري لبلادنا كانت القوانين التي يطبقونـها في المستعمرات عكس القوانين المطبقة في بلادهم.

* * *

الفصل الثاني

آثار الأزمة

- أثرها على العامة
- أثرها على الخاصة
- أثرها في الحالات الاستثنائية

أثرها على العامة

في صباح كل يوم يغادر أفراد الأسر المسلمة منازلهم التي يأوون إليها، وكل منهم يمضي إلى عمله، حيث يمضون سحابة النهار في أجواء تختلف اختلافاً كبيراً عن أجواء المنزل.

فالطلبة من الجنسين يمضون إلى مدارسهم – من الروضة إلى الجامعة –، ويتلقون فيها خليطاً من المواد المقررة نذكر منها ما يلي:

– في العلوم الفلسفية والاجتماعية: نظريات وأقوال أساطين الكفر والضلالة من أمثال: فرويد، وماركس، ودارون، وسارتر.

– وفي العلوم التاريخية والسياسية: تقديس الأوطان والأقوام، وإبراز الآثار الجاهلية مع الدعوة إلى تعظيمها وفي المقابل عرض أحداث التاريخ الإسلامي عرضاً مشوهاً ممسوخاً.

– الموسيقى والرسم، وتدريب الطلبة على الآلات المحرمة، وعلى رسم ذوات الأرواح، وعدد ساعات هاتين المادتين أكثر من الساعات المقررة لمواد التربية والعلوم الإسلامية.

– واختلاط الجنسين لا يقل فساداً عن آثار المواد المقررة على عقول الطلبة، لأنه تدريب عملي على وجوب التمرد على القيم والأخلاق الإسلامية، وما هو المنتظر من مراهق ومراهقة عندما يجلسان على مقعد واحد

بضع ساعات من النهار؟! وقد ينتقل هذا الاختلاط إلى خارج المدارس والجامعات بناء على مواعيد مسبقة ومحرمة.. ثم يقال لهؤلاء المراهقين: هذه هي الحضارة والتقدمية، وليس هناك أي مبرر لفصل البنات عن الأولاد، ولا تصغوا لأقوال وهرطقات الرجعيين المتخلفين!!.

أما صاحب المنزل فحاله كحال أبنائه إن كان مدرساً، وإن كان موظفاً في غير سلك التعليم فتواجهه مشكلتان:

المشكلة الأولى هي الاختلاط، كأن يكون نصيبه الجلوس في غرفة واحدة مع زميلة له في العمل، وقد تحدثنا عن هذه المسألة فيما مضى.

والمشكلة الثانية: هي الترقية، والتي لا يحصل عليها إلا إذا كان حسن السيرة والسلوك، وتقدير ذلك لرئيسه وحده لأنه المكلف بكتابة تقرير سري عنه، وإذا علمنا أن الوظائف المرموقة محرمة على أهل الدين والدعوة والاستقامة - إلا ما شذّ وندر -، وهذا يعني أنه لن يترفع إلا إذا كان يجيد فن التملق والنفاق وتنفيذ كل ما يؤمر به.

وإذا كان الموظف من العاملين في السلك العسكري، فحاله أشد سوءاً من أحوال العاملين في السلك المدني، وذلك لأن عالم العسكريين يسوده القهر والاستبداد، ووجوب تنفيذ الصغار لأوامر الكبار فور صدورها دون أدنى تردد أو تذمر، ولا بأس أن يعترض بعد التنفيذ إذا لحقه ظلم، وكان في ذلك مخالفة للنظام العسكري، ولكن لمن يعترض؟! وهل يضمن أن لا تناله عقوبة أشد بعد هذا الاعتراض ولا سيما إذا كان الطلب سيقدم إلى الخصم المشتكى منه، والخصم يرفعه لمن هو أعلى منه؟!.

وقد يتضمن الأمر المطلوب تنفيذه فوراً الإقدام على تنفيذ جريمة أو

ارتكاب معصية كبيرة، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن بينها الأوامر الصادرة بتدمير حي من الأحياء، أو تعذيب المعتقلين ليعترفوا بجريمة لم يرتكبوها، وما إلى ذلك من مجازر وفظائع غير خافية على أحد، ومن يمتنع عن تنفيذ هذه الأوامر سيحاكم بتهمة الخيانة العظمى أو يقتل من غير محاكمة.

ومن جهة أخرى فإن العسكري مطلوب منه في كثير من الحالات النوم في ثكنته العسكرية ليكون جاهزاً عند الحاجة إليه، وهذه مشكلة مزدوجة، وذلك لأن العسكري المتمسك بدينه المحافظ على صلاته سينظر إليه زملاؤه ورؤساؤه نظرة شك وريبة حتى ولو لم تكن له انتماءات حزبية، وهذا هو الحال في كثير من بلداننا، فأي حياة سيحياها هذا الجندي المؤمن إذا كان كل من حوله غرباء عنه بأخلاقهم الهابطة وألفاظهم البذيئة، والجانب الآخر من هذه المشكلة تتمثل في الآثار السلبية الناجمة على زوج العسكري وأبنائه بسبب غيابه المتكرر عن البيت.

وثالثة الأثافي في هذه القضية أن عدد الموظفين العاملين في السلك العسكري ليس قاصراً على الجنود المتطوعين، وإن كان هذا العدد بحد ذاته كبيراً، فكل مواطن إذا بلغ سناً معيناً يجب عليه أن يخدم مدة معينة في الجيش تتراوح من سنة ونصف إلى سنتين، وقد يدعى بعد انتهاء خدمته عند الحاجة إليه، فيرافقه شعور دائم بأن الاستبداد العسكري حليف له لا ينفك عنه إلا إذا هرم وشاخ.

وإذن لابد لمن يعيش في هذه المجتمعات - مدنياً كان أو عسكرياً - من التأثر بها، قلّ هذا الشيء أم كثر، فالإنسان ابن بيئته كما يقولون، ومن المكابرة أن يزعم زاعم أنه قد حصّن نفسه وأسرته من عدوى هذا المرض، وليس من المعقول والمقبول أن نقول لهؤلاء الطلبة والموظفين: إذا ولجتم أبواب

منازلكم مساءً أبعدوا عن تفكيركم كل ما يتعلق بعملكم اليومي، وألقـوا علـى عتبات بيوتكم كل ما تعلمتموه في نـهاركم وانتقلوا إلى عالم آخر.. عالم الأسـرة المسلمة التي تتأسى بأسر سلف هذه الأمة في خلقها وآدابـها وفضلها. إن ذلـك من المستحيل لأن الولد سوف يسأل أباه: هل صحيح أن الإنسان كان قـرداً في العصور الغابرة، ثم تطور مـع مـرور الـزمن حتـى أصـبح في شـكله الحـالي؟! والمراهق لابد وأن يفكر بما كان بينه وبين زميلته من أحاديث، ولابـد أن يـسأل نفسه: لماذا كنت خجولاً حيياً أمامها، وربما أعد لكل شيء عدتـه إذا عـادت في اليوم الثاني إلى الحديث عن الموضوعات نفسها التي كانت تدندن حولها.

والفتى الصغير سيعود إلى منـزله ليشتم إخوانـه - إذا اختـصم معهـم - بشتائم جديدة ما كان يعرفها من قبـل. وصـاحب المنـــزل قـد ينـادي زوجتـه فينسى ويذكر اسم زميلته في العمل بدلاً من اسمهـا، فتقـع الواقعـة، وتنفجـر المرأة غضباً وحنقاً، وما أسهل غضب المرأة بل وجنونـها في مثل هذه الحـالات، وقد تنعكس القضية فتذكر المرأة عندما تنادي زوجها اسـم زميلـها في العمـل.. وإذا سلم المنـزل من هذا وذاك، فلن يـسلم مـن الـشيطان المفـسد الـذي يحتـل مكان الصدارة في غرفة جلوس العائلة، أعـني بـذلك "التلفـاز"، ومـا يبثـه مـن برامج خليعة ماجنة، وقد أشرنا إلى شيء من ضرره فيما مضى.

* * *

أثرها على الخاصة

ليس مستغرباً أن يتأثر عامة الناس بـهذا الغزو المنظم الذي اجتاح بلداننا وأقوامنا، ولكن المستغرب أن يتأثر به بعض الذين تصدوا لحربه وتحذير النـاس من آفاته، وسأعرض فيما يلي بعض المواقف المؤسـفة الـتي يظهـر مـن خلالهـا تراجع نفر من المنسوبين للدعوة عن المهمة التي أوجبها الله عليهم:

- بين المنسوبين للدعوة من يستقبح العمل الدعوي في ميـادين الـسياسة، لأنـها - على حد زعمه - مشغلة للمسلم عـن واجباتـه نحـو خالقـه ودعوتـه، وإذا حاججته في وجوب إنكار المنكر جاءك بكلام مضطرب متنـاقض.. ولكـن هذا الشيخ الزاهد يلج السياسة من أسوأ أبوابـها استجابة لأوامـر وتعليمـات السلطان، وتراه يخوض معركة طاحنـة ضـد الآمـرين بـالمعروف والنـاهين عـن المنكر من العلماء والدعاة، ويتناسى قولـه بـالأمس: إن الـسياسة تفـسد صـفاء العبادة، كما يتناسى نقده المرير للدعاة الذين يسقطون في أوحالهـا.. ثـم تتطـوع بطانة السلطان فيما بعد بنشر أخبار الصفقة التي تقاضاها الشيخ العابـد الزاهـد مقابل المعركة السياسية التي اقتحم غمارها بجدارة.

- وبين المنسوبين للدعوة مـن يكـذب علـى رسـول الله ﷺ، فينـسب إليـه أحاديث ليس لها أصل، زاعماً أن هذه الأحاديث، وإن كانت موضوعة فهي خير مادة لترغيب الناس بالإسلام، وترهيبهم من المعاصي والمنكرات، ولعمر الحق إن عمل هؤلاء المفترين من أكبر المنكرات لأن الكذب كذبٌ سواء كان للدفاع عـن الإسلام أو عن المذهب أو الحـزب، ولـيس الكـذب علـى رسـول الله ﷺ مثـل

الكذب على غيره، ومن دأب على الكذب فسوف يكتب عند الله كذاباً.

وليس أمر "القصاصين" في تاريخنا الإسلامي خافياً على أحد من أهل العلم، وقد كفانا أهل الحديث مؤونة هتك أستارهم، وكشف عوارهم، وبيان فساد أخلاقهم، وقريب الشبه بالقصاصين في هذا العصر نفر من الناس اعتادوا اختلاق الدعايات والإشاعات المغرضة ضد علماء الإسلام انتصاراً لأهوائهم وأحزابهم أو مقابل منافع دنيوية يحصلون عليها ممن له مصلحة في الإساءة للإسلام وأهله.

- وبين المنسوبين للدعوة من ينصّب نفسه أستاذاً لتدريس التوحيد، والدعوة إلى إصلاح الاعتقاد، وإقامة النكير على أصحاب البدع وعلى كل من انحرفت عقائدهم. ونحن نوافق هؤلاء الناس على أن ما يدعون إليه من أجل العلوم وأهمها وأنفعها، وإذا صلح الاعتقاد استقامت سائر أمور المسلم في دنياه وآخرته، ولكن لابد أن يكون هذا الداعية صادق النية، وليس هناك تناقض بين قوله وفعله.

إننا نرى نماذج من هؤلاء يفجرون عند الخصومة، وما أكثر الخصومات التي يفتعلونها، وبينهم من يؤتمن على مال أخيه أو سره فيخونه، وبينهم من يتحدث فيكذب، ثم يكذب ولا يخشى الله سبحانه وتعالى، وبينهم من يعد فيخلف الوعد، وهذه الخصال الثلاث من أهم خصال المنافقين، كما قال ﷺ : (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[١].

وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق:

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، كتاب الإيمان.

إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) [١].

فكيف يقبل الناس دروس هذا الشيخ ومواعظه، وهم يرونه يحدّث فيكذب، ويعد فيخلف، ويخاصم فيفجر، ويؤتمن فيخون؟!.

وبين هؤلاء من يصنف الكتب عن الولاء والبراء، وتقرر كتبه هذه في المعاهد والجامعات، ولكن واقع حاله يخالف ما قرره وأكد عليه في مؤلفاته، فهو من الذين يوالون الظالمين، ويتسكع على أعتابهم، ويتودد إليهم بكتابة التقرير، والتجسس على إخوانه الدعاة، ومحاولاته الدائمة في الطعن بالجماعات الإسلامية والنيل منها مستخدماً كافة السبل غير المشروعة.

مثل هذا المدرس لن يكون موضع احترام الطلبة وتقديرهم لأن دروسه حجة عليه، بل وماذا يبقى له من صلاح الاعتقاد إذا خالف في سلوكه وأعماله عقيدة الولاء والبراء، وارتكب في تجسسه كبيرة من الكبائر لا يفعلها إلا من كانت فيه خصلة من النفاق؟!.

وبين هؤلاء المدرسين من يهدر الساعات الطوال في تدريس الشرك وأنواعه، وهم منغمسون بشيء واضح من شرك الطاعة، طاعة شيوخهم أو حكامهم في معصية الله، وفي أمور هي حق من حقوق الله وحده لا شريك له.

وإذا كنا في هذا المجال نتحدث عن الذين تخالف أقوالهم أفعالهم، وبسبب هذه المخالفة ينفر الناس منهم وينفضّون من حولهم.. فهناك والحمد لله رجال صادقون أمناء يدعون إلى تصحيح الاعتقاد، والتزام ما كان عليه رسول الله وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ويلتف الناس حولهم عندما يجدون أفعالهم تصدِّق أقوالهم.

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب خصال المنافق.

- وبين المنسوبين إلى الدعوة من يتعصبون تعصباً ذميماً لأوطانهم أو لأقوامهم أو لأحزابهم أو لزعمائهم، ويختلط هذا التعصب عندهم بالإسلام والعمل الإسلامي فيحاولون إيجاد مبرر شرعي أو أمني له.

ومن مظاهر هذا التعصب أنهم لا يقبلون التعرض لبلدانهم بأي نقد مهما كان شكله، وإذا كانت المسألة التي تعرض لها الناقد من أكبر أنواع الظلم وعجز المدافعون عن إيجاد مبرر لها قالوا: لقد ضخم الناقد المسألة، وأعطاها بعداً لا نعتقد أنه كان وارداً عند المسؤولين، وأصبح الناس في بلدنا مقتنعين أن الناقد لا يريد غير النقد والتشهير، وهذه القناعة تسيء إلى الإسلاميين بشكل عام.. لكن هذا الناقد الذي يتعبد الله سبحانه وتعالى بفريضة إنكار المنكر لو قال الكلام نفسه عن بلد آخر غير بلدهم لشدوا على يده، ودعوا له بدوام السداد والتوفيق.

ومن مظاهر هذا التعصب أيضاً أنه عندما ينشب صراع بين بلد وبلد آخر، أو بين حزب وحزب آخر ينحاز كل طرف من الإسلاميين تلقائياً لأهل بلده أو لحزبه، دون أن يتبيّنوا الحق من الباطل.. ويسأل صاحب الفطرة السليمة هذا الطرف أو ذاك: ما الذي دفعكم إلى مقاطعة من كانوا عندكم بالأمس ملء السمع والبصر؟ وكيف تستجيبون لأوامر وتعليمات مخالفة لشرع الله؟! جاؤوك بأقوال متضاربة متناقضة.

❊ ❊ ❊

هذا هو حال بعض المنسوبين إلى الدعوة، وأحسب أن عدد الذين يتعصبون لبلدانهم كبير، ومن بين هذا العدد كثير ممن هم مظنة صلاح وخير.

وهناك صنف آخر من الدعاة كانوا يعتبرون بعض الأمور من المنكرات

- وهي كذلك - ويقيمون الدنيا ولا يقعدونـها علـى فاعلـها، وقـد يقاطعونـه ويحذرّون الناس منه.. ولكن انتشار هـذه المنكـرات، وإصـرار الـسلاطين علـى فرضها وإشاعتها رضي من رضي وغضب من غضب، هذا وذاك جعل هـؤلاء الدعاة يغيرون مـوقفهم، وبـات بعـضهم يـشكك بقـضايا معلومـة مـن الـدين بالضرورة، ولو بُعث شيوخهم من قبورهم ورأوا ما آلت إليـه أوضـاع طلبـتهم لتبرؤوا منهم، وسبحان الذين يُغير ولا يتغير، ونسأله تعالى أن لا يجعل مصيبتنا في ديننا.

* * *

أثرها في الحالات الاستثنائية

تمر ببعض بلداننا حالات استثنائية يتولى العسكريون فيها شؤون الحكم، مدعين أن البلد على أبواب حرب أهلية يُذكي نارها طائفة من الإرهابيين الذين يريدون أن يعودوا بالناس إلى العصور الرجعية المظلمة.

الإسلاميون هم هذه الطائفة التي يستهدفها العسكريون وأشباه العسكريين، وقد عودونا أنهم لا يقومون بانقلاباتهم إلا عندما يقوى شأن الإسلاميين، ويشتد عودهم في ظل هامش الحرية المسموح به في بلادنا، وعندما ينجح الانقلاب - ولابد له أن ينجح إذا كنا نحن العدو المستهدف - تكون قوائم الأعداء وعناوينهم معدة سلفاً، فبعضهم يقتل تحت أي ذريعة، وبعضهم يهرب قبل أن يصلوا إليه، ومعظم الباقين يدخلون السجون والمعتقلات. وبسبب كثرتهم تبنى لهم سجون جديدة، أو يزجّون بهم في صحراء واسعة محاطة بالأسلاك الشائكة وقوات عسكرية للحراسة والتحقيق والتعذيب.

وفي ظل هذه الأوضاع الجديدة يفتقد الناس الدعاة المصلحين، ويضعف الإقبال على المساجد، ويصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، لأن "الجنرالات" الجدد يتولون بأنفسهم أو عن طريق شيعتهم ووكلائهم نشر الفساد والرشوة والمخدرات، وتكثر السرقات، ويُفتقد الأمن ولا يأمن المواطن على عرضه وماله ونفسه.

مثال من الجزائر:

زرت الجزائر في شهر رمضان المبارك الذي سبق الإضراب والانقلاب العسكري، ومن خلال ترددي على عدة مساجد في صلاة التراويح ظننت أن الجزائريين كلهم برجالهم ونسائهم وفتيانهم قد انتقلوا إلى المساجد وأقاموا فيها، وعندما تتحدث إليهم تسمع منهم التصميم على أن دولة الإسلام في بلدهم قادمة، وأن عهد العلمانيين قد ولى إلى غير رجعة.

قام العسكريون بانقلابهم وأطاحوا بالرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، ثم ألغوا الانتخابات التي حصلت جبهة الإنقاذ الإسلامية على الأكثرية المطلقة فيها، ورافق ذلك اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الإسلاميين.. ثم تطورت الأمور تطوراً مأساوياً بعد إعلان عدد من المجموعات الإسلامية الجهاد ضد النظام، وانقسام هذه المجموعات على نفسها.

وسأنقل فيما يلي فقرات نتبين من خلالها ما آل إليه الوضع في الجزائر بعد خمسة أعوام أو تزيد قليلاً:

- "أكتب لكم هذه الرسالة من الجزائر البلد الجريح، وأنتم تعلمون ضائقة العيش هنا ربما أكثر منا، ليس علينا أن نكتم ضعف قوتنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس، فالمواطن البسيط يعيش على الأرض وهو مكره، وبطن الأرض خير لنا من ظهورها، وبصورة مبسطة إذا قيل لكم إن رجلاً يعيش ليأكل، ويعيش في حالة من الفزع والرعب، فلا يأمن على ماله كما لا يأمن على نفسه وأولاده، فهل تسمى هذه حياة؟!".

- "في مكالمة هاتفية سأل أحد الأخوة صديقاً له في الشرق الجزائري: أين تصلي الجمعة؟ فذكر له الصديق اسماً من الأسماء التي يستغرب اعتلاءها المنابر.. وعندما قال له الأخ أما وجدت غيره؟ أجابه صديقه: أنتم الذين تعيشون في الخارج مهما تابعتم أخبارنا لا تستطيعون تقدير المأساة التي نعانيها،

والله يا أخي لو أجد عذراً شرعياً يعفيني من صلاة الجمعة لفعلت فضلاً عن الصلاة عند هذا أو ذاك، لقد أممت المساجد وتوحدت الخطب فموضوع هذا مثل موضوع ذاك".

- قال أحد أهل مدينة البليدة: "زرت مدينتي البليدة بعد انقطاع عنها دام خمس سنين، فوجدت كل شيء فيها قد تغير، لقد دخلت المساجد وأنا أمَّني نفسي بلقاء بعض من أعرف من الأحبة، وأقول البعض لأنني كنت قد سمعت عن قتل وسجن كثير منهم، وحتى هذا البعض لم أجده.. سبحان الله كيف يجد المرء نفسه غريباً بين أهله وذويه، وفضلاً عن ذلك فالمساجد تفتح قبل الصلاة بدقائق، وتغلق أيضاً بعد الصلاة بدقائق، وكنت ألمح بين المصلين وجوهاً نكدة، وعيوناً يتقاطر منها الشرر.

خرجت من المسجد وأنا خائف من رواده الجدد الذين لا تظهر على وجوههم سمات أهل الخير، وسلكت الشارع المؤدي إلى منزلنا، فوجدته غير آمن، وتكاد لا ترى فيه إلا سيارات قوات أمن الدولة الذين يوقفون بعض المارة ويصطحبونهم معهم ثم تنقطع أخبارهم فيما بعد، وقد تلقى جثثهم في الشارع نفسه.

أما اهتمامات الناس ففي لقمة العيش التي باتت عسيرة المنال على أهل مدينة فطروا على التجارة، ومما لفت نظري أن معظم تجار المدينة صاروا فقراء لأن أبواب التجارة قد أوصدت في وجوههم، واحتكرها "الجنرالات" وأقرباؤهم وأصدقاؤهم.

وكم آلمني كثرة المتسولين في البلدة، وزاد من ألمي أنني أعرف بعضهم، وأعرف عنهم الغنى والعفة والكرامة.. وما كنت أتصور أن هؤلاء الناس

سيأتيهم يوم يقفون فيه هذا الموقف الذليل".

"وقال قادمون من مدن أخرى: هناك أحياء عريقة في هذه المدن انتشرت فيها المخدرات بشكل لم يكن مألوفاً ولا معروفاً من قبل، ومن أبرز من يتناولها ويتاجر بها رجال الشرطة الذين دأبوا على ارتياد مقاهي معينة لترويج هذه السموم المدمرة.

أما السرقة فقد أصبحت ظاهرة عامة ملفتة للنظر، ويقول بعض كبار العسكريين لأقربائهم: معظم هذه السرقات يقوم بها أعضاء "الميليشيات"، التي شكلها النظام، ويضاف إلى ظاهرة السرقة ظاهرة أخرى هي التبرج والفجور والاعتداء على النساء، أما الرجال الذين عهدناهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهم بين قتيل وسجين ومطارد مقهور"(١).

لم يعد أحد في الجزائر آمناً لا في منزله، ولا في مسجده، ولا في عمله، ولم يعد الناس في العالم كله يسمعون عن هذا البلد إلا أخبار: الذبح، والمتفجرات، والسيوف، والخناجر، والفؤوس، ولم يعد سراً أن قوات الأمن أول المتهمين بكثير من هذه المجازر التي ترتكب.

هذه الحالات التي من المفترض أن تكون استثنائية؛ طال أمدها، وكثر ضررها، وأصبحت دائمة، والانفراج حالة استثنائية، ومن الأمثلة على ذلك: أن الجزائر لم تشهد عهداً تحترم فيه حريات الموطنين إلا العهد الذي سمح فيه الرئيس الأسبق بن جديد بتشكيل أحزاب وكانت مدته بمنغصاته حوالي ثلاث سنين، أما بقية سنوات عهد ما يسمى بالاستقلال فقد كان حالة استثنائية، وكذلك كان شأن تونس طوال عهد الاستقلال - كما رأينا فيما مضى -، أما

(١) مجلة السنة، العدد الرابع والستون، شوال ١٤١٧.

المتضرر الأكبر في العهد الاستعماري في كل من الجزائر وتـونس فهـم العلمـاء وتلامذتـهم والمتأثرون بـهم من عامة الناس.

أما ليبيا فأمرها عجيب، طوال عهد القذافي الذي زاد على ثلاثـين عامـاً، ففي كل يوم قرار جديد، ولابد لهذا القرار الذي يصدره الرئيس من خيمتـه أن يصدر باسم مؤتمر الشعب العام، ومـن هـذه القـرارات أن الـذي يطلـق لحيتـه التزاماً بالسنة يسمونه "زنديقاً"، والزنديق الحقيقي الذي يغيّـر ويبـدّل في كتـاب الله وسـنة رسـوله ﷺ يـسمّونه مؤمنـاً وإمامـاً في الـدين، وأن الـشباب الـذين يداومون على صلاة الجماعة في المساجد - وبشكل أخـص صـلاة الفجـر - لا يأمنون على أنفسهم، وأن أولياء أمور الفتيات لا يستطيعون منعهن من التجنيد أو من الالتحاق بالكليات العسكرية حيث لابد فيها من الاختلاط ومن المبيت في ثكنة واحدة لمدة طويلة ومن غير محرم شرعي، بـل وإن طـرح مـسألة المحـرم الشرعي ما هو إلا تفكير رجعي استعماري متخلف يجب سحقه والقضاء التـام عليه وعلى كل من يفكر به.

نعود إلى السؤال السابق: ما هو المتوقع في ظل هذه الأوضاع الاسـتثنائية التي لم تعد قاصرة على تونس والجزائر وليبيا؟!.

والله غالب على أمره:

عندما بطش عبد الناصر بطـشته الـصغرى والكـبرى (١٩٥٤ – ١٩٦٥) ظن أنه ملك ناصية الأمور تماماً بيده، وحدّثه شـيطانه أن حملـة مـشاعل الهـدى والإصلاح لن ترتفع لهم راية في وادي النيل إلى الأبد، فجاءه الله جل وعلا من حيث لم يحتسب ولم يقدر، ورأى بعينـه بدايـة الـصحوة الإسـلامية بـين عـامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠، ثم عادت الصحوة بعد هلاكه أقـوى ممـا كانـت عليـه قبـل

مجيئه إلى السلطة، ولا تزال في نمو وتكاثر والحمد لله.

في الحسابات المادية المجردة كان من حق عبد الناصر ومن سبقه أو لحقه الاعتقاد بأن من يسمونهم "بالرجعيين" لن يعودوا إلى الظهور مرة أخرى، وإن عادوا فسوف تكون عودتهم ضعيفة باهتة، ولن يستطيعوا تقويض هذه الصروح العلمانية التي بناها الأباطرة.

يعيش الطغاة أيام حكمهم وكأنهم خالدون مخلدون، ويصدّقون الأقوال الكاذبة التي يسمعونها من بطانة السوء التي تحيط بهم، ويصدق فيهم قول الله تعالى على لسان زعيمهم وقائدهم الأول فرعون: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾.

ولكن كيد الشيطان كان وسيبقى ضعيفاً أمام كيد الله تعالى، ويدرك الطغاة ضعفهم وهوانهم في الأيام أو الساعات القليلة التي تسبق هلاكهم عندما يسلط الله عليهم مرضاً خبيثاً فيفتك بهم ويحولهم من حال إلى حال آخر لا يحسدون عليه، أو عندما يدبّر ناس من بطانتهم انقلاباً ضدهم.

ومن مظاهر ضعف كيد الشيطان وحزبه هذه الصحوة الإسلامية التي جاءت رغم أنف: أتاتورك، وعبد الناصر، وبورقيبة، وميشيل عفلق.. ورغم أنف قادة الشرق والغرب، وكل الذين لا يريدون أن لا ينطلق المارد الإسلامي من عقاله.

ومن أجل أن توضع الأمور في نصابها الصحيح، وحتى لا تتكرر الأخطاء نفسها، فإنني سأبين فيما تبقى من هذا البحث أهمية الأخلاق في التربية الإسلامية، وفي بناء جيل يحقق لأمتنا ما تصبو إليه من عز وسؤدد.

* * *

الفصل الثالث

صور من أخلاق رسول الله ﷺ

قبل البعثة وبعدها

- صور من حياة الرسول ﷺ وأصحابه قبل البعثة
- إسلام أبي بكر
- من أخلاق النبي ﷺ بعد البعثة
- من أقوال العلماء في محاسن الأخلاق

صور من حياة الرسول ﷺ وأصحابه قبل البعثة

كان العرب قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، معطلة عن فعله، فلما بعث الله محمداً أخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم[١].

وكان السابقون الأولون إلى الإسلام من أفضل العرب في حب الخير، وزكاة النفس، وطهارة القلب، ومن أشدهم كرهاً للخصال السيئة مثل المكر والغدر والغل والحسد.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: (سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرمُ؟ قال: أكرمُهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرمُ الناس يوسفُ نبيُّ الله، ابنُ نبيُّ الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: فخيارُكم في الجاهلية خيارُكم في الإسلام إذا فقهوا)[٢] .

من فقه الحديث:

١ – يتكرر هذا الأسلوب في الحديث النبوي، فتارة يسأل الرسول أصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وتارة أخرى هم الذين يسألونه، والسؤال بحد ذاته يجلب الانتباه، ويحرك الأذهان، وكان من الممكن أن

(١) هذا القول لابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، وكتاب التفسير.

يخصص الأصحاب سؤالهم: أي معادن العرب أكرم وأفضل؟ ولكن التعميم أكسبهم فوائد أخرى: كصلة التقوى بالكرم، وكون نبي الله يوسف عليه السلام من أكرم الناس.

٢ – المعادن: جمع مَعدِن وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيساً وتارة يكون خسيساً، وكذلك الناس. ووجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأسٌ، فإن أسلم استمر شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية.

٣ – إن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين، فمن لم يسلم فلا اعتبار به سواء كان شريفاً أو مشروفاً، وسواء تفقه أو لم يتفقه.

٤ – المراد بالخيار والشرف كل من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق، كالكرم والعفة، والحلم وغيرها، ومتوقياً لمساويها: كالبخل، والفجور، والظلم، وغيرها[١].

وعن مكانة العرب بين الأمم قاطبة، ومكانة رسول الله ﷺ بين العرب نذكر هذين الحديثين:

عن وَاثلَةَ بن الأَسْقَعِ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله اصطفى كِنَانَةَ من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[٢].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٦/ ٦٥٧، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي، وصحيح الترمذي، أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم ٣٨٦٩.

وعن المطلب بن أبي وَدَاعَة عن العباس قال: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس. قال: فَصعِدَ المنبر فقال:

(مَنْ أنا؟ قالوا: أنت رسول الله. فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة. وخلق القبائل، فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً. فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً)[١].

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم.. وأن قريشاً أفضل العرب. وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو: أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً.

وفضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص، فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش.

ويجب على المسلم إذا نظر في الفضائل أو تكلم فيها أن يسلك سبيل العاقل الدَّيِّن، الذي غرضه أن يعرف الخير، ويتحراه جهده، ليس غرضه الفخر على أحد، ولا الغمص من أحد.. وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم)، كان في هذا تنبيه لمن انتسب لهؤلاء الثلاثة أن لا

---

(١) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل النبي، وأحمد: ١/ ٢١٠، الحديث رقم ١٧٨٨ طبعة المعارف، تحقيق أحمد شاكر. وقال: إسناده صحيح.

يغتر بالنسب، ويتركوا الكلم الطيب، والعمل الصالح"[١].

ولم يكن أحد من قريش ينكر الخصال الحميدة التي امتاز بها محمد ﷺ عن أقرانه، فخديجة رضي الله عنها حين أبت الزواج من أعيان قومها وأغنيائهم، واختارت محمداً ﷺ كانت تدرك برجاحة عقلها وبعد نظرها أن هذا الشاب الفقير لا يعلو عليه أحد من قريش، وأن الأخلاق أفضل من المال والجاه.

عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (أول ما نزل الوحي على رسول الله ﷺ عاد إلى منزله خائفاً يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يُخزيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتُكسِبُ المعدومَ، وَتقِري الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائب الحق.. وفي روايات أخرى صحيحة: وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة)[٢].

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال:

أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: ١/ ٣٧٠، مكتبة الرشد، الرياض.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، وكيف كان بدء الوحي، انظر فتح الباري.

عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾)[١].

مهد ﷺ للخبر العظيم الذي جمعهم من أجله بقوله: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟!) أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب[٢]، ومع إقرارهم بصدقه فقد أوقعوا أنفسهم في تناقض مخجل عندما أعرضوا عن دعوته، وقال قائلهم: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟.

وكان أبو سفيان بن حرب من ألد أعداء رسول الله ﷺ، ولم تمنعه هذه العداوة من الاعتراف بصدق رسول الله ﷺ وأمانته في رده على أسئلة هرقل:

- "سأل هرقل: كيف نسبه فيكم؟.
- قال: هو فينا ذو نسب.
- هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.
- قلت: لا.
- قال: فهل يغدر؟.
- قلت: لا.
- قال: ماذا يأمركم؟.
- قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك الأقربين.

(٢) انظر فتح الباري: ٨/ ٦٤٤، السلفية.

آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. ويقول أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه"[١].

وفي هذا دليل على أن العرب في جاهليتهم كانوا يأنفون من الكذب. قال ابن حجر العسقلاني:

وفي قوله - أي قول أبي سفيان - يأثروا دون قوله " يكذبوا دليل على أنه كان واثقاً منهم بعدم التكذيب أن لو كذب لاشتراكهم معه في عداوة النبي ﷺ، لكنه ترك ذلك استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا، فيصير عند سامعي ذلك كذاباً.

وفي رواية ابن اسحاق التصريح بذلك ولفظه: فوالله لو قد كذبت ما ردوا عليّ ولكني كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عني ثم يتحدثوا به فلم أكذِبْهُ"[٢].

ليت الذين هم اليوم على مثل عقيدة ودين أبي سفيان في جاهليته يتعاملون مع الإسلاميين بمثل الطريقة التي تعامل فيها أبو سفيان، مع أنهم سادة وملكهم أكبر وأعظم مما كان عليه أبو سفيان، لكنهم لا يتورعون عن الكذب وعما هو أحط منه.

إن طغاة عصرنا يمارسون أبشع أنواع الإرهاب ضد الإسلاميين، ثم يزعمون بأننا إرهابيون ويطلقون القول بذلك دون أي استثناء ... إنهم يسفُّون في أكاذيبهم، ويشاركهم في هذا الخلق المشين نوابهم ومساعدوهم، والقائمون

---

(١) فقرات من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

(٢) فتح الباري بشرح البخاري: ١/ ٣٧ البابي الحلبي.

على شؤون إعلامهم، وكل لا يخجل من الآخر.

وليت بعض المنسوبين إلى الدعوة يتخلقون بمثل أخلاق أبي سفيان، فلا يفجرون في خصومتهم مع إخوانهم، ولا يختلقون الأكاذيب ضدهم، ولا يخونون فيما ائتمنوا عليه.

❊ ❊ ❊

إسلام أبي بكر

قال ابن إسحاق عن إسلام أبي بكر رضي الله عنه:

"كان صاحب رسول الله ﷺ قبل البعثة، وكان يعلم من صدقه، وأمانته، وحسن سجيته، وكرم أخلاقه، ما يمنعه من الكذب على الخلق، فكيف يكذب على الله؟ ولهذا بمجرد ما ذكر له أن الله أرسله بادر إلى تصديقه ولم يتلعثم، ولا عكم"[١].

كيف يكذب على الله من لا يكذب على الخلق؟! بمثل هذا يفكر من رزقه الله رجاحة العقل، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون، وهذا من أسباب توفيق الله لأبي بكر، حيث إنه لم يتردد عندما عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وبادر إلى تصديقه فاستحق لقب الصديق، ثم انطلق بعد ذلك يدعو إلى الإسلام:

قال ابن إسحاق:

"فلما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه دعا إلى الله عز وجل وإلى رسوله، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه، ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله، وإلى الإسلام من وثق به من

(١) البداية والنهاية: ٣/٢٧.

قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه"[(١)].

ولأنه رضي الله عنه كان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، فقد اختار نوعيات معينة من الرجال، وتجنب نوعيات أخرى. . فلم تنقل لنا كتب السيرة أنه دعا: أبا لهب، وأبا جهل، وأمية بن خلف، ومن هم على شاكلة هؤلاء لأنه كان يعلم ما هم عليه من فساد وطغيان وعنجهية جاهلية، ومن كانت هذه حالهم فليس متوقعاً منهم أن يستجيبوا لهذه الدعوة التي تتعارض مع عاداتهم وتقاليدهم أشد المعارضة، وليس من وراء دعوتهم في هذه المرحلة إلا الخصومة واللجاج.

أما الذين اختارهم الصديق، فقد كانوا عند حسن ظنه بهم فأسلموا معه، وهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

محمد بن عبد الله ﷺ وزوجه خديجة، ومولاه زيد، وعلي، وأبو بكر، وهؤلاء الذين أسلموا بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم وأرضاه هم أعضاء هذه الجماعة الإسلامية.. ولقد كانوا أسلم أهل الوادي فطرة، وأنقاهم سريرة، وأصدقهم لهجة، وأطيبهم عشرة.. وعلى سواعد هؤلاء الرجال نهضت دعوة الرعيل الأول.

حاصر سفهاء الأمصار منزل عثمان بن عفان رضي الله عنه، واتهموه باتهامات باطلة ملفقة، فقال يرد على أحد رؤوس هذه الفتنة: "كذب والله ابن عديس، ولولا ما ذكر ما ذكرت، إني رابع أربعة في الإسلام، ولقد أنكحني رسول الله ﷺ ابنته، ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، ولا زنيت ولا سرقت في

---

(١) الروض الأنف: ٣/ ١١، للسهيلي.

جاهلية ولا إسلام، ولا تعنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ. . الخ"[١].

والشاهد هنا قوله: ولا زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام، وهذه هي أخلاق السابقون الأولون رضي الله عنهم. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

"إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء"[٢].

* * *

(١) رواه أحمد، وهو حديث حسن.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ١٨١.

من أخلاق النبي ﷺ بعد البعثة

وصف الله تبارك وتعالى أخلاق المصطفى ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

خلق عظيم لم يبلغ مستواه أحد من العالمين، ومن آثار هذا الخلق العظيم أنه يسمع هذا الثناء من الله جل وعلا فيزداد تواضعاً وسماحة وليناً ولطفاً مع الناس، وهذا مما ليس في مقدور البشر، وإذا كانت بعض صفات هذا الخلق العظيم قد تمثلت برسول الله ﷺ قبل البعثة، وميزته عن سائر أقرانه، وعن أشراف مكة وأهل الفضل فيهم، فقد جاءت النبوة لتحدد سمات هذه الأخلاق، وهذا الذي قصدته عائشة رضي الله عنها في قولها: "كان خلق رسول الله ﷺ القرآن"[١]. أي كما هو القرآن فيما نص عليه من أمانة وصدق وعدل ورحمة وحفظ للعهد، ومطابقة القول للفعل، وفيما نهى عنه من ظلم وغش وأكل لأموال الناس بالباطل وغير ذلك من المحرمات.

ومن آثار هذا الخلق العظيم أيضاً أنه ﷺ كان يختار لأمته أيسر الأمور، ويحذّرهم من الغلو والتنطع في الدين، وكان يكثر من مشورة أصحابه تودداً إليهم، ورغبة منه لإشاعة سنة المشاورة بينهم، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، الحديث رقم: ١٣٩.

لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

- ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فهو كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.. الخ.

- ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ شديد عليه عنتكم ومشقتكم لأنه بعض منكم ويخاف عليكم سوء العاقبة، والوقوع في العذاب[1].

وإذا كنا فيما مضى قد عرضنا صوراً من أخلاق رسول الله ﷺ قبل البعثة شهد له بها المؤمنون والكافرون من أهل مكة، فلسوف نعرض فيما يلي صوراً أخرى من أخلاق رسول الله ﷺ بعد البعثة شهد له بها أقرب الناس إليه:

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً، كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم).

أخرجه البخاري ومسلم والموطأ وأبو داود.

- وعنها رضي الله عنها قالت:(ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم

(١) انظر تفسير القاسمي لهذه الآية، ص: ٣٣٠٥.

من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم). أخرجه مسلم.

- وعنها أيضاً قالت: (جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إنكم تقبلون الصبيان، ولا نقبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟) . أخرجه البخاري ومسلم.

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (خدمت رسول الله ﷺ عشر، فما قال لي أفٍ قط، وما قال لشيء صنعته: لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته: لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً، ولا مَسَست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق النبي ﷺ). أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

وقال ابن حجر العسقلاني في تعليق له على هذا الحديث: "ويستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات، لأن هناك مندوحة عنه باستئناف الأمر به إذا احتيج إليه، وفائدة تنزيه اللسان عن الزجر والذم واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعاً فلا يتسامح فيها لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(١).

- وعن أنس رضي الله عنه قال: (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء). متفق عليه.

أجل: ما كان رسول الله ﷺ يثأر لنفسه ممن يظلمه، وإنما كان يعفو

(١) فتح الباري: ١٠/ ٥٦٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

ويصفح: ولقد عفا عن هذا الأعرابي الذي جبذه بردائه جبذة شديدة، وعفا عمن قال له: هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، وعفا عمن جاءه يطلب ديناً له، فقال له: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطلٌ.

وعفا عن شيخ المنافقين الذي بالغ في إيذاء رسول الله ﷺ، قبل اعتذاره، وقال لابنه عندما جاءه يستأذنه بقتله: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

لكنه ﷺ ما كان يعفو ولا يتساهل إذا انتهكت حرمات الله، لأن العفو في حق من حقوق الله ضعف ومهانة، ولقد غضب ﷺ عندما كلمه أسامة بن زيد بشأن المرأة المخزومية التي سرقت لأنه لا يجوز الشفاعة في حدٍ من حدود الله، وغضب من الإمام الذي كان يطيل الصلاة بالناس لأن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة.

وكان ﷺ يوصي أصحابه بحسن الخلق، ويرغبهم فيه:

- عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء). رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والبذيء: هو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام.

- وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)[١].

---

(١) رياض الصالحين، باب حسن الخلق، وصحيح سنن الترمذي، الحديث رقم ١٦٤٢ - ٢١٠٤، والثرثار هو كثير الكلام، والمتشدق: هو الذي يتطاول على الناس بالكلام.

من أقوال العلماء في محاسن الأخلاق

للعلماء كلام جميل في بيان محاسن الأخلاق، والتحذير من مساوئها، وفيما يلي مقتطفات من هذه الأقوال:

١- قال يوسف بن أسباط:

" علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه"[1].

٢- وقال أبو حامد الغزالي: وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال:

" هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً رضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً، لا لعاناً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً ولا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله. فهذا هو حسن الخلق".

٣- ويقول ابن القيم:

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: ٣/ ٧١، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

" للأخلاق حد متى تجاوزته صارت عدواناً، ومتى قصرت عنه كان نقصاً ومهانة.

فللغضب حد، وهو الشجاعةُ المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كمالُه. فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقصَ عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذُ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به. فإنه متى خرج بعض أخلاقه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك"[١].

ويقول أيضاً:

" أصل الأخلاق المذمومة كلِّها: الكبر، والمهانة، والدناءة. وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع، وعلو الهمة. فالفخر، والبطر[٢]، والأشر، والعجب، والحسد والبغي، والخيلاء، والظلم، والقسوة، والتجبر، والإعراض وإباء قبول النصيحة، والاستئثار، وطلب العلوِّ، وحب الجاه والرئاسة، وأن يُحْمدَ بما لم يفعل، وأمثال ذلك، كلها ناشئة من الكبر.

وأما الكذب، والخسة، والخيانة، والرياء، والمكر، والخديعة، والطمع، والفزع، والجبن، والبخل، والعجز، والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك؛ فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة: كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروءة والعفة،

(١) الفوائد، ابن القيم، ص ٢٠٤، دار الكتاب العربي.

(٢) بطر: طغى ولم يشكر النعمة، والأَشَرُ والبطر بمعنى واحد.

والصيانة، والحلم، والعفو، والصفح، والاحتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدناءات، والتواضع، والقناعة، والصدق، والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الاشتغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، ونحو ذلك؛ فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة.. فَمَنْ علت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكل خلق جميل. وَمَنْ دنت همته، وطغت نفسه، اتصف بكل خلق رذيل"[(١)].

* * *

(١) الفوائد، مصدر سابق، ص: ٢١٠.

الفصل الرابع

مكانة الأخلاق في بيان جعفر

مكانة الأخلاق في بيان جعفر

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها قالت:

"لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشي) أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم[1] فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله[2] بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما:

ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم اسألوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليردوهم إليهم، فأشيروا عليه

(١) الأدم: مفردها أديم، وهو الجلد المدبوغ.

(٢) في رواية الإمام أحمد: عمارة بن الوليد بن المغيرة.

أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهم: نعم، ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه.. ".

رفض الملك العادل – النجاشي – طلب عمرو بن العاص، كما رفض تأييد البطارقة لهذا الطلب الظالم، وأصرّ على استدعاء المسلمين إلى مجلسه وسؤالهم عن حقيقة ما يقوله رسولا قريش عنهم وعن دينهم.

قالت أم سلمة: "ثم أرسل إلى أصحاب رسول ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولان للرجل إذا أجبتموه؟! قال: نقول والله ما علمنا وما جاء به نبينا كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوه فسألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، قال: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما

جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.. "[١] اهـ.

من فقه الحديث:

١ - في هذا الكلام الفريد في بابه تحدث جعفر عن أخلاق وعادات أهل الجاهلية، وهي من غير شك مستقبحة أشد الاستقباح في جميع الملل والأديان، ثم أشار إلى أهم الخصال الحميدة التي امتاز بها نبي الله محمد بن عبد الله ﷺ قبل البعثة، ومنها صدقه وأمانته وعفافه، ثم انتقل إلى الحديث عن هذا الدين الجديد، وكان موفقاً أعظم التوفيق عندما لخصه في مسألتين: الأولى: التمسك بالأخلاق الفاضلة، والكف عن كل ما فيه إيذاء للناس، والثانية: عبادة الله وحده لا شريك له، وما الصلاة[٢]، والصيام والزكاة إلا التطبيق العملي لدعوة التوحيد.

والمسألة الأولى متداخلة بالمسألة الثانية تداخلاً يصعب الفصل بينهما،

(١) حديث أم سلمة أخرجه ابن إسحاق مسنداً، وقال ابن كثير في السيرة: وهذا إسناد جيد قوي، وقال ابن تيمية بعد ذكره لقصة المهاجرين في حديث أم سلمة: "وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ، كأحمد ابن حنبل في المسند، وابن سعد في الطبقات، وأبي نعيم في الحلية وغيرهم، وذكرها أهل التفسير، والحديث، والفقه، وهي متواترة عند العلماء" الجواب الصحيح: ١/ ٧٩، مطبعة المدني.

(٢) كان ذلك قبل أن تفرض الصلاة والزكاة والصيام في مفهومها الذي حددته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وهذا ما يمتاز به هذا الدين الجديد عن غيره من المذاهب والأديان الأخرى.

عمرو بن العاص وصاحبه كانا يصغيان جيداً لما يقوله جعفر بن أبي طالب في هذا اللقاء الحاشد، والذي ستسفر عنه نتائج فاصلة، ولم يستطيعا تكذيب ما قاله جعفر عن أخلاق الجاهلية، ولا ما قاله عن أخلاق محمد ﷺ قبل البعثة، أو ما قاله عما جاء به هذا الدين الجديد من آداب وتعاليم، وسكوتهما إقرار بصحة ما قاله جعفر، لاسيما وأن ما ذكره من صفات ذميمة للعرب في جاهليتهم يمس عمرواً في الصميم، ويضعه في موضع المنهزم، وليس من السهل أن يُقرّ داهية العرب بالهزيمة.

٢ - كان المسلمون في الحبشة - في سلوكهم وأخلاقهم - قدوة طيبة، فلم يؤثر عنهم أعمال مخلة بالآداب العامة، ومواقف تتناقض مع عقيدة التوحيد التي هاجروا من أجلها وتحملوا مختلف أنواع الأذى في سبيلها، ولو صدر عنهم شيء من هذا القبيل لشاع أمره لأنهم غرباء، ومن طبيعة أهل أي بلد التوجس من الغرباء، ورصد حركاتهم، وإشاعة أخبارهم مع تضخيمها إن كانت سيئة.

وتتزايد الحاجة إلى مراقبة المهاجرين إلى الحبشة، لأنهم جماعة يعيشون في وسط لا تربطهم به روابط قربى أو لغة أو دين أو لون.. ومع ذلك كله فقد كانت أفعالهم صورة طبق الأصل عن أقوالهم، فالبطارقة الذين كانوا قد انحازوا إلى صف عمرو بن العاص بسبب الهدايا التي قدمها لهم عجزوا عن تقديم أي دليل ضد المسلمين، والملك العادل الذي كان ملماً بأحوال الناس في مملكته ما كان يعرف عن جعفر وأصحابه أي سوء.

٣ - فوجيء المشركون بهجرة بعض المسلمين إلى الحبشة، لأن هذه

الهجرة تقضي على الأمل الذي يراودهم في حصار الدعوة داخل مكة، والقضاء عليها وهي لا تزال في مهدها، ومن جهة أخرى فالحبشة موقع حساس بالنسبة لأهل مكة، وبين البلدين علاقات قوية، ووجود قاعدة آمنة للمسلمين في هذا البلد ستكون له عواقب بالغة الخطورة على الشرك وأهله، ويظهر لنا خوف قريش من خلال الهدايا الثمينة التي جمعوها، والوفد الذي اختاروه، والخطة التي أحكموا حبكها.

كان عمرو بن العاص رسول قريش إلى النجاشي، وكان يضرب به المثل في الدهاء والذكاء والمكر والمراوغة. قال الشعبي: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو، والمغيرة، وزياد. فأما معاوية فللأناة والحِلمْ، وأما عمرو فللمعضلات، والمغيرة للمُبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه، قال: خالقُ هذا وخالق عمرو بن العاص واحد[(١)].

وإذن فإن عمرو بن العاص كان قد اعتمد في مهمته على واسع حيلته، وعظيم دهائه، وقدرته الفائقة على المراوغة، وخبرته الطويلة في هذا الميدان، كما كان قد اعتمد على الرشاوى الثمينة التي قدمها للبطارقة وللنجاشي، ومن جهة أخرى فإن عمرو بن العاص ومن هم على شاكلته معروفون عند أهل الحبشة – قيادة وقاعدة – أما محمد ﷺ وجعفر بن أبي طالب وغيرهما من عموم المسلمين فمجهولون، ولا حاجة للأحباش بمجموعة تدعو نصرتها إلى تفجير مشكلة مع أهل بلد صديق.

ورغم اعتماد ابن العاص في مفاوضاته مع النجاشي على أوراق مهمة

(١) سيرة أعلام النبلاء، للذهبي: ٣/ ٥٦، مؤسسة الرسالة.

وفعَّالة، فقد كان وقومه يطالبون برد المسلمين إلى قومهم قبل أن يكلمهم النجاشي، تقول أم سلمة:

"ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم (أي كلام المسلمين) النجاشي"، وفي هذا دليل على أن الحق قوي وإن كان حملته مستضعفين مشردين، وأن الباطل ضعيف مهما رغا وأزبد.

لم يستسلم ابن العاص عندما رده النجاشي ورفض تسليم المسلمين إليه، تقول أم سلمة: "فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. قالت: قال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا"، ثم غدا على النجاشي ليخبره بأنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد لله، وكان ابن العاص يجزم بأن ما فعله هو الضربة القاضية!!.

وإذا كان المسلمون يعتقدون بأن المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله، فما هي عقيدة ابن العاص وقومه من كفار مكة بالمسيح وإخوان المسيح من الأنبياء والرسل ورب المسيح؟! ليس مهماً الجواب على هذا السؤال، وإنما الأهم استئصال خضراء جعفر وأصحابه بأي ثمن: رشوى.. نميمة.. دس وافتراء.. مكر ومراوغة، وهذا هو أسلوب أهل الكفر نحو المسلمين في القديم والحديث، قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

لقد كان ابن العاص في موقفه هذا قدوة يحتذي بها رجال السياسة الذين يطاردون الدعاة إلى الله في كل مكان، ويتحالفون مع اليهود والنصارى والوثنيين من أجل استئصال خضرائهم، وبتر شأفتهم، وتشويه سمعتهم، وإن

السياسة عند أهل الكفر والنفاق تعني: الكذب والافتراء والانتهازية والدعوة إلى تقديس الذات، ولا يبالي أحدهم إذا لبس اليوم لبوس الشيوعية، وغداً لبوس الرأسمالية، ثم تنصل في اليوم الذي يليه من هذا وذاك.

أما المسلمون في الحبشة فقد كانت سياستهم منضبطة بضوابط الشرع من البداية وحتى النهاية، فلما دعاهم النجاشي اجتمعوا وتشاوروا ثم خرجوا من هذا الاجتماع بقرارين:

الأول: أن يقولوا للنجاشي ما علموا، وما أمرهم به نبيهم كائناً في ذلك ما هو كائن.

الثاني: أن يكون جعفر بن أبي طالب هو المتحدث باسمهم.

وإنه لموقف عصيب: فليس جعفر في شهرته ودهائه مثل ابن العاص، ومن جهة أخرى لم تنقل لنا الروايات أنهم طرحوا في اجتماعهم مسألة تقديم رشوة للنجاشي أو للبطارقة، ولعل مثل هذا الأمر لم يكن مطروحاً عندهم، لأن دعوة الحق لا تنتشر ولا تعلو بمثل هذه الوسائل الهابطة، ومن جهة ثالثة فهم دعاة دين يكذّب عقيدة التثليث التي ابتدعها النصارى بعد عصر المسيح عليه السلام، ومع كل هذه الاعتبارات التي تخدم مهمة وفد قريش لابد أن يقولوا للنجاشي ما علموا، وما أمرهم به نبيهم.

وخلال دقائق قليلة منذ بداية الاجتماع برزت عبقرية جعفر بن أبي طالب من خلال الدفاع الرائع الذي ألقاه أمام النجاشي والبطارقة ورسولي قريش، فمن حيث المادة لم يأت بجديد، ولم يقل إلا ما علمه عن هذا الدين، ولكن البراعة كانت في حسن الاختيار، وفي القدرة الفائقة على مخاطبة الفطرة البشرية في نفوس المستمعين.

وعندما ضرب ابن العاص ضربته الأخيرة في اليوم الثاني.. اجتمع المسلمون مرة أخرى وتشاوروا: ماذا يقولون عن عيسى عليه السلام إذا سألهم النجاشي عنه؟!، ثم خرجوا من هذا الاجتماع بقرار موحد: لا نقول إلا ما قال الله، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن!!.

ماذا كانت النتيجة النهائية؟!.

هُزِمَ ابن العاص شر هزيمة، وهُزِمَ المكر والخداع والمراوغة أمام الحق الذي أحسن الصدع به رجال مستضعفون غرباء ليس لهم حول ولا قوة، وقال النجاشي لرسولي قريش في نهاية اللقاء الأول: انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد، وقال في نهاية اللقاء الثاني:

"ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله"، ثم قال للمسلمين: "اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، والسيوم: الآمنون، من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم؛ فما أحب أن لي ديراً ذهباً وأني آذيت رجلاً منكم - والدير بلسان الحبشة الجبل - ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

قالت (أم سلمة): فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار".

وإذن فإن جعفر وأصحابه كانوا يدركون بأن هذا اللقاء الذي دعاهم إليه ملك الحبشة له أبعاد خطيرة على حياتهم، وعلى مستقبل وجودهم في الحبشة، لكنهم قرروا أن يقولوا ما يأمرهم به دينهم، مهما كانت النتائج: اضطهاد.. قتل.. تسليمهم لابن العاص وصاحبه، فالوسيلة عندهم من جنس

الغاية، وهم بعد ذلك وقبله يؤمنون بأن الأمور بيد الله سبحانه وتعالى، وما عليهم إلا الصدق في أقوالهم ومواقفهم.

والله جل وعلا الذي يعلم ما تكنه نفوسهم من إيمان عميق، وثبات على الحق لا يتزعزع قد هيأ لهم أسباب النصر من حيث لم يحتسبوا ولم يخطر لهم على بال، فالنجاشي تأثر أشد التأثر بما سمع من جعفر عن معالم هذا الدين، وبكى حتى اخضلت عيناه بالدمع عندما سمع آيات من القرآن الكريم، وأعلن التصديق بنبوة محمد ﷺ، ولم يكن من قبل - كما تشير الروايات - قد التقى بالمسلمين وسمع منهم.

وعمرو بن العاص لم تتح له عداوته لرسول الله ﷺ التعرف على الإسلام، ولم يحاول محاورة رسول الله ولا أصحابه في مكة، وهاهو يستمع لكل ما قاله جعفر بن أبي طالب لا يقاطعه ولا يحاول إسكاته لأن مجلس الملك المهيب لا يسمح بهذا النوع من الشغب، ولابد لرجل نابغة مثل ابن العاص أن يتأثر مما سمعه من جعفر، وتشير بعض الروايات إلى أن هذا المجلس كان بداية رحلة ابن العاص إلى الإسلام، وأن النجاشي هو الذي حبب إليه الدخول في الإسلام لأنه كان صديقه كما كان كثير التردد عليه(١).

إنه لمن المخجل أن نجد بعض المنسوبين إلى الدعوة الإسلامية متأثرين بأساليب الأحزاب والهيئات السياسية التي لا تدين بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة.. وكثيراً ما نسمع هؤلاء يرددون: إن السياسة هي فن الممكن، والممكن - عندهم - لابد وأن يخضع للمساومات، والمساوم يتشدد ابتداءً في عرضه ثم يقبل في النهاية نصف أو ربع ما كان يطلبه، وإذا قيل لهم: كيف

(١) أخرج ابن إسحاق بسند متصل إلى عمرو بن العاص أن بداية إسلامه كانت بعد غزوة الخندق على يد النجاشي، سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٩.

قبلتم ورضيتم بما كنتم تصرون على رفضه؟!، أجابوا: لابد في العمل السياسي من المرونة والواقعية، وتجنب الإغراق في الأوهام والأحلام، وعندما يناقشهم المحاور في مدلولات "المرونة" يسمع منهم أجوبة عائمة ومتناقضة يتعمدون تغليفها بأغلفة براقة تشف عما في داخلها من كذب ومراوغة.

والأشد إيلاماً أن بعض هذه الجماعات تتعمد اختيار نوعيات من هؤلاء المراوغين ليكونوا ممثلين لها عند المؤسسات الحكومية الظالمة، أو عند الأحزاب الجاهلية العاتية، لأن هؤلاء الممثلين دهاة – على حد قولهم!! –، ثم يتركون لهم الحبل على غاربه، فيعقدون الاتفاقات، ويصدرون البيانات، ويحققون الانتصارات الموهومة المصطنعة التي تضاعف من قيمتهم عند جماعاتهم، وترسخ القناعة بأن استبدالهم بآخرين غير ممكن لأنه ليس في الجماعات من يتصف بالمؤهلات التي يمتاز بها هؤلاء الدهاة!!، وإذا أصرت إحدى هذه الجماعات على تغيير ممثلها السياسي، فقد تفشل لأن الجهة الرسمية لا تتعاون مع غير الأول، أو لأن هذا الممثل ينقلب على إخوانه ويحاول إيذاءهم مستخدماً كل ما عنده من مراوغة وكذب وخداع، وعندها تفهم الجماعة –ولكن في وقت متأخر – الخطأ الذي وقعت فيه.

إن الوسيلة في ديننا من جنس الغاية، والعمل السياسي يعني التزام ما أمر الله به ورسوله، وهو عبادة، مثله مثل سائل أنواع العبادات القولية والفعلية، والمرونة في العمل السياسي محمودة شريطة أن لا تتجاوز الإطار الشرعي، وحسن فهم الواقع، وقد تحقق هذا في قول رسول الله ﷺ لأصحابه: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد)، والرسول ﷺ يقول هذا من منطلق معرفته لأحوال الملوك والأمم في عصره، وقد تحقق ما قاله عن عدل النجاشي، ومن جهة أخرى فقد كانت أفعال الصحابة في الحبشة مطابقة

لأقوالهم، كما كانت استقامتهم وأخلاقهم خير شاهد على صحة ما يدعون إليه.

في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فصول كافية تحدد معالم السياسة الشرعية وتبين الجائز من غير الجائز، وهذه النصوص نفهمها كما فهمها أئمة الإسلام، وكل من ينتدب لتمثيل الهيئات والجماعات الإسلامية يجب أن تتوفر فيه صفات معينة من أهمها: التقوى والصدق والعلم وحصافة الرأي أو الدهاء الذي لا يخالف النصوص الشرعية، وفضلاً عن هذا وذاك لابد من حسن الإعداد، واستعراض كافة الاحتمالات قبل إصدار القرارات.

رضي الله عن جعفر بن أبي طالب وسائر مهاجري الحبشة الذين تعلمنا منهم مثل هذه الدروس القيمة وإذا كانت روايات السيرة لم تسعفنا بالكثير من أخبارهم فحسبهم حديث أبي موسى الأشعري الذي أخرجه البخاري في صحيحه، وموجزه أن أسماء بنت عُميس غضبت من عمر بن الخطاب عندما قال لها سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فأجابته: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله، ثم ذكرت ما دار بينها وبين عمر لرسول الله ﷺ، فقال لها: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان[1].. وحسب جعفر أيضاً قول النبي ﷺ: (أشبهت خُلقي وخَلقي)[2].

---

(١) صحيح البخاري، الأول في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، والثاني في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

(٢) المصدر السابق.

الفصل الخامس

تزكية النفوس

تزكية النفوس

ربى رسول الله ﷺ من آمن بدعوته من أهل مكة تربية فريدة في نوعيتها وشموليتها، وكان ﷺ قدوة حسنة لهم في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه، وفي القرآن الكريم أدلة كثيرة على أهمية هذه التربية، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. **وقال جل من قائل:** ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. **وقال تعالت أسماؤه وصفاته:** ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

- ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يقرأ على هؤلاء الأميين آيات الله التي أنزلها إليه، وهذه التلاوة كانت سبباً في إسلام كثير من مشركي العرب، لأنهم كانوا يدركون منذ الوهلة الأولى التي يستمعون فيها لآيات من القرآن الكريم أنه ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، وإنما هو شيء جديد لا عهد للعرب به من قبل، وهذا الذي يتلوه من أصدق العرب وأبعدهم عن السحر والشعوذة، ولابد أن يكون نبياً مرسلاً.

ونعمة تلاوة القرآن الكريم استمرت بعد وفاة رسول الله ﷺ، وها نحن

نشهد مظاهرها في كل بيت ومدرسة، ولدى كل مناسبة، وعند كل صلاة، وقد أقيمت لتحفيظ القرآن ولتعليم تجويده وترتيله وقراءته مدارس لا تعد ولا تحصى، وستبقى هذه السلسلة المباركة الطيبة إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. [الحجر:٩]

- ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يطهر نفوس المسلمين من الأخلاق السافلة والرذائل الممقوتة، ويخلقها بالأخلاق الحميدة، وقد جاء الإسلام بالتهذيب المطهر من الحسد والبغضاء وحب الدنيا وحب الجاه والإخلاد إلى الأرض، وكراهية الموت والحرص والجشع، وتحليتها بحب الله، والإقبال على الآخرة والرغبة في الجنة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والطمع في رضا الله وثوابه.

يقول الأستاذ سيد قطب في تعليق له على هذه الآية: ".. وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول ﷺ تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الروحية، وتطهير للحياة الاجتماعية، تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح. وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال.. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع. تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى، ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم"[1].

- ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: ويعلمهم كتاب الله، وما فيه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ص: ٣٥٦٥.

من أمر الله ونـهيه. أما الحكمة فللمفسرين أقـوال فيهـا: فمـنهم مـن قـال هـي السنة لأنـها علمتهم كيف يهتدون بالقرآن، ومنهم من قال: هي أسرار الأمور وفقه الأحكام، وبيان المصلحة فيها، والطريق إلى العمل بـها ذلك الفقه.. ذلـك الفقه الذي يبعث على العمل، ومنهم مـن قـال: المـراد مـن الحكمـة الأخـلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية، لأن القرآن قد أطلق لفظ [الحكمة] علـى هـذه الأخلاق والآداب في مواضع شتى، ولينظر من يـشاء إلى الآيـات الـتي سـبقت قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: ٣٩]، والآيات التي تلـت قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ [لقمـان: ١٢][١]، والصواب أن الحكمة تشمل هذه المعاني الثلاثة التي ذكرها المفسرون.

وخلاصة القول: فإن الله جل وعلا قد بعث نبيه محمداً ﷺ لـتلاوة القـرآن الكريم، وتزكية نفـوس المـسلمين، وتعلـيمهم الكتـاب والحكمـة، وأن التزكيـة بمعناها العام الذي فصلنا القول فيه فيما مضى قد سبقت في الترتيـب والأهميـة التعليم، ولهذا فقد ارتبطت بسائر الأعمال والأقوال.

فعـن الصـلاة يقـول تعـالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [سورة الأعلى: ١٤ و ١٥]. وقـولـه تعـالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وعـن الزكـاة قـولـه تعـالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن الصيام قولـه تعـالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) عدت إلى تفسير المنار، لرشيد رضا، وإلى كتـاب الطريـق إلى الـسعادة والقيـادة، لأبـي الحـسن الندوي، ونقلت فقرات عنهما مما استحسنته في تفسير هذه الآية.

مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقول رسول الله ﷺ: (من لم يدع قول الزور، والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[١].

وعن الحج قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وعن أهل بيت رسول الله ﷺ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

* * *

لقد انتصر أصحاب رسول الله ﷺ على شهوات أنفسهم فحفظوا ألسنتهم عن الفحش والصخب، وحفظوا أعمالهم عن كبائر الذنوب والمعاصي، وطهروا قلوبهم من الرياء والنميمة والنفاق.. وعندما تحقق لهم هذا الانتصار العظيم كتب الله لهم النصر على عدوهم في معارك ضارية كان المشركون فيها متفوقين من حيث العدد والعدة، ولا إخال أحداً من المسلمين لا يعرف شيئاً عن معارك المسلمين المظفرة في: بدر، ومكة - عام الفتح -، والأحزاب، والقادسية، واليرموك، وحطين، وعين جالوت، وشقحب، وفتح القسطنطينية.

وهكذا كان شأن التابعين ومن تبعهم من أعلام وقادة هذا الدين، ولنأخذ مثالاً على ذلك التجار المسلمون الذين انتشروا في أقاصي بلاد العالم بحثاً عن المال والكسب الحلال، ولكن تجارتهم لم تشغلهم عن دعوتهم التي

(١) البخاري.

كان لها المقام الأول في حياتـهم.

وكان الوثنيون يراقبون هؤلاء الوافدين الجدد، فيجدون تطابقـاً تامـاً بـين أقوالهم وأفعالهم، فعندما يدعونـهم إلى الصدق والاستقامة والوفاء بالوعد وأداء الأمانة كانوا يطبقون ما يقولـون علـى أنفـسهم، ولهـذا فقـد كـان أهـالي هـذه البلدان يختارونـهم دون غيرهم من التجار الوثنيين أو النـصارى، ثـم يتعرفـون منهم على هذا الدين الذي صاغهم هذه الصياغة، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن أثر هؤلاء التجار في انتشار الإسـلام لا يقـل عـن أثـر الجيـوش في الفتوحـات الإسلامية.

ومما ينبغي التأكيد عليه أنه ما من مصلح أو مجـدد كتـب الله لـه التوفيـق والسداد، إلا وكان يبدأ بنفسه فيصلحها، ثم يصلح أهله وأقرب النـاس إليـه، وهذا الذي فعله عمر بن عبد العزيـز -رحمـه الله -، لقـد جمـع رؤوس النـاس فخطبهم فقال:"إن فدك كانت بيد رسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله.. ثم إن مروان أقطعها فحصل لي منها نصيب، ووهبني الوليد وسـليمان نـصيبهما، ولم يكن من مالي شيء أرده أغلى منها، وقد رددتـها في بيت المال على مـا كانـت عليه في زمان رسول الله ﷺ.. ثم أمر بأموال جماعة من بني أمية فردهـا إلى بيـت المال وسماها أموال المظالم"[1].

وقال في أول خطبة خطبهـا بعـد أن تـولى الخلافـة: ".. أيهـا النـاس مـن صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا، يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعهـا، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على مـالا نــهتدي إليـه، ولا يغتـابن عندنا أحداً، ولا يعرضن فيما لا يعنيه.. فانقشع عنه الـشعراء والخطبـاء، وثبـت

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٩/ ١٩٨ و ٢٠٠.

معه الفقهاء والزهاد وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله"(١).

إن حالنا اليوم تختلف عما كانت عليه بالأمس، فانتصاراتنا تحولت إلى هزائم منكرة، وقوتنا إلى ضعف، ووحدتنا إلى فرقة وتناحر، وعزتنا إلى ذل وهوان، وما ذلك إلا لأننا حدنا عن النهج القويم والصراط المستقيم الذي خطه لنا المصطفى ﷺ.

قليل منا الذين يستفيدون من المواعظ.. وقليل من الوعاظ هم الذين تجد أقوالهم سبيلاً إلى قلوب المستمعين لأن الناس يعلمون أن أفعال هذا الواعظ تخالف أقواله. قال مالك بن دينار: "إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا"، وقول مالك- رحمه الله- مؤيد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقوله تعالى في توبيخ بني إسرائيل الذين كانوا يأمرون الناس بالبر، وهم فيما يفعلون يخالفون ما يأمرون به الناس: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

ويقول آخر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

---

(١) المصدر السابق.

كان أحد الدعاة الذين رزقهم الله سبحانه وتعالى العلم والحكمة يحاضر في منتدى من المنتديات الأوربية عن مزايا الإسلام الرفيعة، وقيمه الراقية، وبعد انتهاء المحاضرة تقدمت امرأة من المنصة وقالت في تعليق لها:

لاشك أن عالمنا اليوم يفتقد هذه المزايا الرفيعة والقيم الراقية التي أشار إليها المحاضر، ولاشك أن المجتمعات التي تتمسك بهذا الدين لن يخيفها جحيم الجنس والجريمة والمخدرات التي غزت مجتمعاتنا، وأفسدت القيم والأخلاق في نفوس الناس، ومن المؤسف أن المؤسسات الكنسية رغم ما تملكه من إمكانات هائلة وقفت عاجزة عن صد هذا الخطر الداهم الذي يستفحل شره يوماً بعد آخر، ولكن ليسمح لي المحاضر الكريم بمصارحته بالحقيقة المرة:

إن أخلاق المسلمين وعاداتهم تخالف هذا الذي سمعناه منك في هذه المحاضرة التي شدّت انتباهنا. ووجدنا فيها حلاً لأزمتنا الأخلاقية المزمنة، وحتى لا تظن أني أتجنى عليكم وأرمي الكلام على عواهنه، فإنني أعرفك على وظيفتي ثم أسرد لك دليلاً بيناً على صحة ما أقول:

أنا موظفة في مؤسسة الضمان الاجتماعي، وأنت تعلم جيداً أن هذه الوظيفة لا سيما وأنا أتولى مسؤولية مهمة فيها تمكنني من معرفة مختلف طبقات المجتمع في بلدنا، ودعني بعد أن عرفت وظيفتي من ذكر الدليل:

جاءتني ذات يوم امرأة مسلمة تطلب سكناً خاصاً بها وبأبنائها لأن زوجها الذي كانت تعيش معه في منزل واحد قد طلقها، وقمت باتخاذ الإجراءات اللازمة التي تمكنها من الحصول على بيت ومكافأة، بعد أن قدمت لي الوثائق التي تثبت صحة قولها، ثم عادت المرأة نفسها بعد حين لتخبرني بأنها رزقت مولوداً، وجاءت تطلب مكافأة له.

كيف حدث هذا وقد مضى على طلاقها أكثر من عامين، ومن جهة أخرى فإن الإسلام يحرم ما يعرف في بلادنا "بالصديق"؟!، لابد لي أمام هذه الإثارة من القيام بالتحريات اللازمة.. وتبين لي أخيراً أنه لم يقع طلاق بين الزوجين ابتداء، وأن الزوجة لم تغادر بيت زوجها، والقصة من أولها لآخرها تحايل على قانون الضمان الاجتماعي من أجل الاستفادة من المكافأة المخصصة للمطلقة، أما البيت الثاني فقد قاما بتأجيره، والأسوأ من هذا وذاك أن الوالدين لم يترددا في تسجيل المولود كابن غير شرعي.

ومضت المرأة في مداخلتها فقالت:

أيها السيد المحاضر: ليست هذه حالة فريدة فنضرب الصفح عنها، ولو استعرضت معي سجلاتنا لتبين لك أنه لا فرق بين المسلمين وبين غيرهم في الكذب والغش والاحتيال، وأخشى أن أصدمك لو قلت لك أكثر من هذا، فأين هذه الخصال والمزايا الراقية التي تحدثت عنها؟!.

قد تقول لي: هناك فئة من المسلمين تتمثل فيهم مزايا الإسلام الطيبة، ولا يعرف الكذب والغش سبيلاً إلى نفوسهم الأبية، فأجيب: وهناك أيضاً من غير المسلمين من تتمثل فيهم صفات طيبة كالصدق والأمانة وحب الخير، فلست وإياك نتحدث عن هذه الفئات القليلة النادرة لأن الشاذ لا حكم له، ولعلك لا تختلف معي عندما أقول: إن أحوال الناس في بلدانكم لا تختلف عن أحوال المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانينا، وهذا ما تؤكده وسائل الإعلام وتقارير المنظمات الدولية - على اختلاف تخصصاتها -، وأقوال الأوربيين الذين زاروا هذه البلدان.. فقل لي أيها السيد المحاضر لماذا هذا التناقض المريع بين أحوالكم التي أشرنا إليها وبين ما يدعو إليه دينكم؟!.

عرضت مسؤولة الضمان الاجتماعي في مداخلتها على محاضرة أخينا

الداعية مشكلة المسلمين في هذا العصر، وهي - والحق يقال - لا تتجنى علينا، وقد قلت غير مرة: إن الأوربيين الذي دخلوا الإسلام قالوا بعد احتكاكهم بالمسلمين: من فضل الله علينا أننا أسلمنا قبل أن نرى هذه السلبيات المؤسفة.

إن الدعاة المصلحين مطلوب منهم أن يكونوا في أخلاقهم وسلوكهم وأفعالهم صورة صادقة لهذا الدين الذي يدعون الناس إليه، وأن يحذروا أشد الحذر من تناقض القول مع العمل، يقول الحق جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، وهذه سنة ثابتة من سنن الله في التغيير، وخطوة أولى في مسيرة الإصلاح، فمن تجاوزها إلى غيرها فشل.

فمن الدعاة من يرى أن الجهل بالعلوم الشرعية هو سبب هذه المشكلة التي يضج الناس في الشكوى منها، وأنه لا سبيل إلى التغيير والإصلاح إلا بتبديد دياجير الجهل، ولهذا فهم يشمرون عن سواعد الجد والعمل، ويأخذون على عواتقهم نشر التعليم بكافة الإمكانات المتاحة لهم.. لكنهم ينسون أو يتناسون بأن التعليم لا ينفصل عن التربية، وإذا وقع الانفصال فلسوف تشتد الأزمة وتترسخ لأن هناك فرقاً شاسعاً بين الجاهل الذي لا يأبه الناس لقوله، وبين العالم الذي يزعم أنه يقدم أدلة من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة يبرر من خلالها مواقفه السيئة وأفعاله القبيحة والدين بريء مما ينسبه إليه.

رجال التعليم في بلادنا أدركوا منذ وقت مبكر أن التربية مرتبطة بالتعليم أشد الارتباط وأوثقه، ولهذا فقد سموا الوزارة المسؤولة عن التعليم "وزارة التربية والتعليم". وقد أصابوا في الاسم المختار، كما أصابوا عندما قدموا التربية على التعليم.. ولكن كثيراً من القادة الذين ابتليت بهم أمتنا فسروا التربية تفسيراً علمانياً خبيثاً، وعملوا على تربية أجيال تعكف على تعظيم أوثان حديثة كالتقدمية، والوطنية، وتقديس تراب الوطن، والوحدة، والدين لله

والوطن للجميع، وغير ذلك من أصنام لا تعد ولا تحصى.

ومن الدعاة أيضاً من يرى أن سقوط الخلافة وما تبعه من تقسيم الأمة إلى دويلات، واستبدال القوانين الجاهلية بأحكام الشريعة الإسلامية.. هو سبب تخلف المسلمين وهوانهم، وأنه لابد من قيام جماعات تعمل من أجل عودة الخلافة.

هذا وذاك وغيرهما مما لم نشر إليه مطلب شرعي لا غبار عليه، والعمل من أجله واجب في ذمة كل داعية، ولكن الخطوة الأولى في هذا الطريق تستهدف إصلاح النفوس، ومن يعجز عن تغيير نفسه وإصلاحها فلن يقدر على تغيير المجتمع.

لقد شهدنا قيام تجمعات كبيرة، تعلق الناس بها، واستبشروا بقيامها، وعلو شأنها، وضخامة عدد المنتسبين إليها، ولكنها عندما أخذت تقترب من تحقيق أهدافها دب الخلاف بين قادتها، وتعذر الإصلاح، وانقسمت على نفسها، وصُدم الأعضاء بما صاروا يسمعونه عن أخلاق بعض قادتهم السيئة، وتبين بالأدلة التي لا يخالطها شك أن هؤلاء القادة بدأوا بالخطوة الثانية وأهملوا الخطوة الأولى ولهذا وصلت الجماعة إلى طريق مسدود.

وخلاصة القول: فإن التربية بالقدوة أفضل أنواع التربية وأجلها، ولم نسمع أو نر أن كذاباً ربى صادقاً، وجباناً ربى شجاعاً، وحقوداً حسوداً ربى حليماً متسامحاً، وبخيلاً ربى كريماً، ورحم الله من قال: "أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم.. ".

وأختم قولي هذا بدعاء رسول الله ﷺ: (اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت).

فهرس الكتاب

الباب الثاني: الإرهاب داخل الصف الإسلامي

الباب الثالث: أزمة أخلاق

* * *